القسم الأول

جند الله . . ثقافةً

● **المقدمة – واقع المسلمين الثقافى والتربوى :**

(١)

أنزل الله إسلاماً مبيناً فى كتابه عَزَّ وجَلَّ وسُنَّة رسوله ﷺ ، وقد وصف الله كتابه بقوله : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النحل:٨٩] ، ﴿ **وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [يوسف:١١١] .

وقد فهم المسلمون من هاتين الآيتين ومن أمثالهما وما فى معناهما من سُنَّة رسول الله ﷺ ، أنه ما من قضية من قضايا الوجود . إلا ولله فيها حكم يُعرف من كتاب الله أو سُنَّة رسوله ﷺ صراحة أو استنباطاً ، ومجموع أحكام الله هذه هى الإسلام . والمسلم هو الذى استسلم لأحكام الله كلها ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ** ﴾ [النساء:١٢٥] .

ولم يفهم الكثير من المسلمين هذا المعنى عن شمول أحكام الإسلام لكل قضايا البَشر، حتى إن الأكثرية المطلقة من المسلمين باتت تفهم أنَّ الإسلام هو الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج فقط، مع أن الحديث الوارد فى ذلك عن ابن عمر رضى الله عنه يدل دلالة قطعية على أنَّ هذه أركان الإسلام، أى ركائزه وليست كل الإسلام . بل الإسلام زيادة على ذلك بناء يقوم على هذه الأركان . إذ نص الحديث مبدوء بقوله عليه الصلاة والسلام : « بُنِىَ الإسلام على خمس . . »[١]، وعندما يقال : إن البيت بُنِىَ على دعائم أربع فهذا يعنى أنَّ

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر مرفوعاً.

هناك دعائم فوقها بيت، ولو فهم إنسان من هذا الكلمة أنَّ البيت هو الدعائم الأربع فقط، لكان ذلك خطأ، فكذلك فى الحديث، هناك إسلام وأركان له، ولا يعنى هذا طبعاً أن الأركان غير الإسلام، فأركان البيت جزء منه، وكذلك أركان الإسلام جزء من الإسلام، وإن كانت أساساً فيه، والبناء الذى هو فوق الأركان يشمل أحكام الله فى قضايا الاجتماع، والأخلاق، والسياسة، والسلم، والحرب، والثقافة، والعلم، وغيرها – علمه مَن علمه، وجهله مَن جهله – ولا عذر فى الجهل بعد أن تقوم الحُجَّة . وهذا مكمن الفرق بين مفهوم المسلمين الحقيقيين – قديماً وحديثاً – عن الإسلام، وبين مفهوم غيرهم .

لقد كان مفهوم المسلمين عن الإسلام مفهوماً شاملاً كاملاً سليماً، بحيث ما كان يخطر ببال المسلم أو بخلده أن تكون هناك قضية يحتكم فيها لغير الله، أو أن هناك قضية ليس لله فيها حكم . وكان ذلك بديهياً عند المسلم كيف لا وآيات الله تملأ أذنيه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾[1] [الحجرات:١] ، ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [النساء:٥٩] ، ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ** ﴾ [النساء:٦٠] .

لكنك لو سألتَ الملايين الكثيرة من ذرارى المسلمين اليوم عن الإسلام فماذا تجد ؟ لقد جرَّبنا كثيراً أن نسأل ناساً من المسلمين من مختلف المستويات عن الإسلام، وكنا دائماً نخرج بعدد من التعاريف – أقل بقليل – من عدد المسئولين فى الجلسة الواحدة وكلها قاصر . وأمام هذه الظاهرة، يخرج الإنسان بنتيجتين :

أولى : هى أنَّ مفهوم المسلمين اليوم عن الإسلام مفهوم مضطرب وغير موحَّد، بدليل اختلاف التعاريف .

---

(١) لا تقدِّموا: لا تقطعوا أمراً من الأمور.

وثانية : هى أنَّ مفهومهم عن الإسلام مفهوم قاصر وجزئى، بدليل أنَّ كل واحد منهم عرَّف الإسلام ببعض أجزاء فيه، ولم يُعرِّفه بحقيقته عداً أو حداً . .

(٢)

وكما اضطرب مفهوم المسلم عن الإسلام، اضطرب كذلك مفهومه عمَّن يأخذ أحكام الإسلام عنه . ففى الأصل لم يكن المسلم يأخذ حكم الله إلا عن مصدر ثقة، أهل لأن يعطى حكم الله : « إن هذا العلم دين فانظروا عمَّن تأخذون دينكم » (١) .

وقد قطع الله عن المسلم كل صلة أخذ فيها مظهر طاعة لغير الله ورسوله : ﴿ **وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ** ﴾ (٢) [القلم:١٠] ، ﴿ **وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ* الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ** ﴾ [الشعراء:١٥١-١٥٢]، ﴿ **وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ** ﴾ [الأحزاب:٤٨] ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران:١٠٠] ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران:١٤٩] ، ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [الأنعام:١١٦] .

وحتى المسلمين ليس كل واحد منهم يؤخذ منه حكم الله، لذلك أمر الله المسلمين أن يردوا أمورهم إلى من عنده أهلية الاستنباط فيهم : ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾

[النساء:٨٣]

وهم الذين يُطلق عليهم فى الاصطلاح الفقهى اسم المجتهدين .

---

(١) من كلام التابعى محمد بن سيرين الأنصارى المتوفى سنة ١١ هـ، ذكره مسلم فى مقدمة صحيحه.

(٢) مهين: حقير أو كاذب.

وقد تمسَّك المسلمون بهذا الأصل تمسكاً تاماً حتى إنهم كانوا يعتبرون مَن تصدى لإعطاء أحكام الله اجتهاداً إذا لم يملك أدوات الاجتهاد ضالاً مضلاً، لا يجوز إتباعه، ولو كان صالحاً وعابداً .

أما الآن فقد وصل بعامة المسلمين الأمر إلى حد أنه مَن قال لهم : هذا إسلام، أو لا يتنافى ما أقوله مع الإسلام، صدَّقوه مهما كان . يقول لهم المستشرق المتلبس لبوس العلم والخائن له : هذا إسلام، فيصدقونه ويتبعون رأيه . ويقول لهم الزعيم السياسى الفاسق عن أمر الله، الجاهل بدينه، المجاهر بمعصيته، التارك لعبادته : هذا إسلام، فيصَدّقونه ولو كان ما قاله من أعماق الجاهلية، حتى صرتَ ترى كثيراً من المسلمين يعطون ولاءهم وقيادهم لزعماء من غير المسلمين، على زعم أنَّ دعوة هؤلاء ودعاواهم هى لب الإسلام، أو لا تخالف الإسلام .

ومما زاد البلبلة أن كثيراً ممن يسمون بعلماء المسلمين مفهومهم عن الإسلام خاطىء، وأعطو ولاءهم لغير الإسلام والمسلمين، وآخرين منهم ليسوا أهلاً لإعطاء حكم الله، ولا لمعرفته، فكانت فتاواهم فى كثير من الأحيان شراً على الإسلام وعلى أهله، هذا مع عدم أهلية الكثيرين منهم لحمل رسالة الله والدعوة لها .

(٣)

وفى الأصل كان تفاعل المسلم مع الإسلام شاملاً، وكان تفاعله مع كل جزء من أجزاء الإسلام كاملاً، فكما كان المسلم يتفاعل مع « لا إله إلاَّ الله » كان يتفاعل مع الصلاة، وكما كان يتفاعل مع الصلاة، كان يتفاعل مع أخوة الإيمان : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات : ١٠] . وكما كان يتفاعل مع الأخوة كان يتفاعل مع الولاء، فلا يعطى ولاءه إلا للمؤمنين : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [التوبة : ٧١] . وكما كان يتفاعل مع معنى الولاء، كان يتفاعل مع الجهاد، وكما كان يتفاعل مع الجهاد، كان يتفاعل مع أحكام الحلال والحرام فى قضايا المال . . وبشكل موجز كان يتفاعل مع أحكام الإسلام كلها، مع القرآن كله .

OBEIKAN.COM

وكما كان تفاعله شاملاً مع كل أحكام الإسلام، كان تفاعله مع كل حكم كاملاً، فعندما نرى عمر يقترح أن يُقتل الأسير الكافر بيد قريبه المسلم، ويهم أبو بكر أن يبارز ابنه المشرك، نعلم إلى أى مدى كان التفاعل مع الآية : ﴿ **لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾

[المجادلة: ٢٢]

وعندما نرى خالداً ينزل من قائد جيش إلى جندى عادى، فلا يتغير له بلاء، ولا يرى فى ذلك تحقيراً له . ندرك إلى أى مدى تفاعل المسلم مع الآية : ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾[1] [النساء: ٥٩] .

وعندما نرى أنه لم ينزل مهاجر على أنصارى إلا بقُرعة، ندرك مدى تفاعل المسلم مع قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠] .

وعندما نرى المدينة من أولها إلى آخرها تقاطع الثلاثة الذين خُلِّفُوا، ندرك إلى أى حد تفاعل المسلم مع فكرة الانضباط والطاعة : ﴿ **فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ** ﴾ [محمد: ٢٠-٢١] .

وعندما نرى أنَّ الرسول ﷺ كان يخفف من غلو بعض الصحابة فى العبادة، ندرك إلى أى مدى تفاعل المسلم مع قوله تعالى : ﴿ **وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ** ﴾

[الحج: ٧٧]

لقد تفاعل الجيل الأول المثالى النموذجى مع الإسلام تفاعلاً شاملاً وكاملاً، وكى ندرك مقدار هذا التفاعل نحب أن نقف وقفة أمام آية وصفتهم :

﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ**

---

(١) أولى الأمر: هم الحكام الذين يحكمون بما أنزل الله.

فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾[1]
[الفتح: ٢٩]

وشاهدنا فى الآية : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ . . ﴾ .

الفكرة بذرة، والإنسان محل لإلقائها، فإن صادفت محلاً فى القلب وجواً ملائماً نبتت، فإن كانت فاسدة أورثت فساداً، والعكس صحيح، فهل كان الإسلام بذرة ألقيت فى قلوب الأصحاب فنبتت ؟

إن القرآن يذكر العكس . . أنَّ الصحابة هم الزرع، وإذن فهم البذار، والإسلام هو محل إلقاء البذر، ولا تنبت بذرة إلا إذا فنيت فى الأرض التى بُذرت بها وذابت، وتفاعلت تفاعلاً كاملاً، وكان الغذاء والمناخ وكل ما يلزم ملائماً .

لقد تفاعل الصحابة مع الإسلام تفاعلاً كاملاً شاملاً، بحيث كانوا شجراً بذرته فطرتهم . والأرض، والمناخ، والماء، والهواء : الإسلام .

هذا ما كان، أما الواقع الآن، فإنَّ مَن بقى من المسلمين مسلماً، أصبح تفاعله مع الإسلام قاصراً وجزئياً . لقد فقدنا التفاعل الشامل، وفقدنا التفاعل الكامل، قد نجد المسلم الذى يتفاعل مع الصلاة، ولا يتفاعل مع الزكاة، وإذا تفاعل مع الزكاة، فقد لا يتفاعل مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإذا تفاعل مع هذا فقد لا يتفاعل مع مبدأ الحلال والحرام، وإذا تفاعل مع هذا كله، فقد لا يتفاعل مع الجهاد السياسى، أو المالى، أو الحربى، أو التعليمى، وإذا تفاعل مع هذا كله، فقد لا يعجبه الزى والهيئة المأثوران، ومع هذا الذى ذكرناه من فقدان التفاعل الشامل نجد أن ما تفاعل معه المسلم من بعض جوانب الإسلام لم يكن تفاعله معه كاملاً، فالصلاة التى كان المسلمون يقيمون أركانها، وشروطها، وواجباتها، وسُنَنها، وآدابها، والتى كانت تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، والتى كانوا يفزعون إليها إذا حزبهم أمر، والتى كانت قُرَّة أعينهم، وعمود إسلامهم الذى يقوم عليه كل بناء دينهم، لم تعد عند المسلم العادى كذلك .

---

(١) أخرج شطأه: فراخه المتفرعة فى جوانبه، فاستوى على سوقه: فاستقام على قضبانه.

والإيمان أنَّ الموت والحياة بيد الله، وأنَّ الأجل لا يتقدّم ولا يتأخَّر، والذى كان من آثاره أنَّ المسلم سواء أكان داخل المعركة، أو خارجها يبقى مطمئناً لا يخاف، لم يعد عند المسلم كذلك .

والإيمان بأن الاستشهاد طريق الحياة، لم يعد حقيقة تملأ قلب المؤمن، كما كانت، إذ تدفع شيخاً أعرج أن يخاصم أولاده حين أرادوا منعه من دخول المعركة، بل أصبح حقيقة يتلوها لسان المسلم، ويعتقدها قلبه، دون أن تؤثر فى سلوكه .

إنَّ الله يأمرنا أن نأخذ الإسلام كله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام:١٥٩] ، ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** ﴾ [البقرة:٨٥] ، ﴿ **وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة:٤٩] ، ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ** ﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥] .

والله يأمرنا أن نأخذ الإسلام كله بقوة : ﴿ **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ** ﴾ [البقرة:٦٣] ، ﴿ **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم** ﴾ [1] [الزمر:٥٥] .

والمسلم المعاصر – فى الغالب – فقد من ذاته تحقيق الأمرين معاً .

(٤)

وفى الأصل : المجتمع ذو العقيدة تكون عنده مناعة ولو ظاهرياً نتيجة للضغط العام . والمجتمع الإسلامى – عملياً، ونظرياً، وتاريخياً – أكثر المجتمعات مناعة وحصانة ضد الفكر المعادى أو الجاهلى .

إلا أنه نتيجة للمعانى السابقة التى ذكرناها فقدْ فقدَ المجتمع الإسلامى مناعته وحصانته، ومظهر هذا الفقدان أنك لا تجد فكرة من أفكار الضلال فى العالم إلا وتجد لها حملة فى العالَم الإسلامى وأنصاراً وروَّاداً، وناعقين ومدافعين

---

(١) أى اتبعوا القرآن وهو أحسن ما أنزل إليكم .

عنها، وداعين إليها، بحيث أصبح العالم الإسلامى مستنقعاً صالحاً لكل أنواع الجراثيم الفكرية فى العالم، فلم يعد المسلم كما كان، بل أصبح قلبه مفتوحاً لكل تيَّار ولكل أنواع الرياح .

(٥)

والمسلم ببداهته يرى أن حكم الله هو الأحسن والأحكم : ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً** ﴾ [البقرة:١٣٨] ، ﴿ **وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ (١) [الزخرف:٤] . وينتج عن هذا أنه متى عرف حكم الله تمسك به، وقد يسأل عن الدليل الذى يثبت أن هذا حكم الله من كتاب أو سُنَّة، ولكن متى وضح له الأمر أن ذلك حكم الله، أسلم له واستسلم، وبدون ذلك فلا إسلام : ﴿ **ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ [النساء:٦٥]

أما المسلم المعاصر فقدْ فقدَ هذه البداهة، وفقد الاستسلام، ففقد بالتالى الإسلام . فهو لم يعد الآن يسأل عن الدليل من الكتاب والسُنَّة فقط حتى يقر بأن حكم الله أحسن، بل يطالبك بالبرهان عقلياً، وتجريبياً و . . . على كل حكم بأنه أحسن، ونحن نعتقد حتماً – سواء عرفنا البرهان أو لم نعرف – أنَّ حكم الله أبداً أحسن من غيره، من جميع الجوانب، ولكن ماذا لو قصرت معلوماتنا عن البرهان على قضية أن المسلم الحالى يتناقش وكأن له حق القبول والرفض ؟

لِمَ كان لبس الذهب على الرجال حراماً، أليس زينة ؟ وكذلك لبس الحرير أليس كذلك ؟ لِمَ كانت الموسيقى حراماً، أليست لذيذة ومنعشة ومحركة للمشاعر ؟ إنَّ هذا حكم الله والدليل على أنَّ حكم الله كذا لم يعد كافياً ليترك المسلم ما هو عليه من إثم، بل حتى ولا الاقتناع العقلى والعلمى، لقد فقد المسلم

---

(١) أم الكتاب : اللوح المحفوظ .

OBEIKAN.COM

المعاصر – إلا مَن شاء الله – تلك البداهة التى كان يحسها ضميره أن حكم الله أحسن وأحكم، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم . ونشأ هذا عن انخداع المسلم بشعار الحرية الذى طرحه اليهود وتلاميذهم وخدعوا به العالَم، فأصبح الإنسان يتصور أنه كلما حصَّل مزيداً من الحرية كان ذلك أجود، فتحرر الإنسان من كل مسئولية، ومن كل خُلُق، ومن كل التزام، حتى أصبحتَ تجد صوراً فى الواقع من أفظع الصور، ولا تجد لها منكراً . من استباحة الأعراض، والأموال، والتضليل ، والتدجيل . . . إلى غير ذلك .

والناس سائرون بسرعة بهذا المنزلق بلا تفكير – إلا مَن عصم الله . . والمسلمون الذين هم دعاة الناس إلى الحقيقة القائلة إنَّ البَشر ليسوا أحراراً، بل هم عبيد الله عَزَّ وجَلَّ، مسئولون أمامه، ملتزمون بما يأمرهم به، وكلما كانو أكثر عبودية له، كانوا أكثر كمالاً . وإرتقاءً، هؤلاء المسلمون أنفسهم خدعهم السراب، فساروا وراءه، وتركوا الحقيقة التى لا يجوز أن ينطلق من غيرها الإنسان، وبدلاً من أن يكونوا عُصَّام البشرية عن الضلال، سايروها فى ضلالها، وتبنوا شعارات ضلالها كلها واحداً فواحداً . ومن هنا فَقَدَ المسلم معنى الاستسلام لله الذى بدونه لا يكون إسلام، فخرج عن الإسلام حقيقة وقولاً وعملاً، وإن كان يأبى أحيانا أن يُطلق عليه اسم الكفر . إنك نادراً ما تجد المسلم الذى تستطيع أن تصل معه إلى قرار بمجرد المذاكرة بنصوص الكتاب وأقوال الفقهاء الواردة فى الموضوع، بل إنك لا تستطيع أن تدخل معه فى نقاش على هذا الأساس . فما أكثر الذين يقولون : دع الإسلام جانباً، أو فلنبدأ التفكير منطلقين من مبدأ كذا أو . . أو . . حتى أصبح من المسلَّمات البديهة ألا تناقش أمراً من وجهة النظر الإسلامية البحتة . فأى إسلام بعد ذلك . . ؟

(٦)

ورافق هذا عمليات منظَّمة – صاحبَها استعداد عند ذرارى المسلمين للسماع – أريد بها تحطيم كل جوانب الثقافة الإسلامية، حتى إنَّ الإنسان ليرى

أن : كل جانب من جوانب الثقافة الإسلامية يتولى أمر تحطيمه مجموعات فى قلب الأقطار الإسلامية . فالتاريخ الإسلامى تجد مَن يحاول إبرازه بصورة تخدم أعداء الإسلام المعتدين، واللغة العربية تجد مَن يدعو إلى إحداث تطوير فيها، أو تغيير يؤدى إلى قتل الثقافة الإسلامية، والسُنَّة تجد مَن يتبنى تهديمها والتشكيك فيها، والفقه الإسلامى تجد مَن يتبنى إبعاده والتشكيك فى قيمته، والقرآن تجد مَن يطعن عليه، وتجد مَن يدرس حاضر العالَم الإسلامى بشكل يزيد من صلابة الحواجز بين المسلمين، وتجد الدوائر التى تحاول تشويه اسم كل مَن يعمل للإسلام، أو إخماده وإخفات صوته، ولما كان الإسلام يقوم على الإيمان بالله والرسول، تجد حملات التشكيك على هذين الأصلين تظهر على أشدها، وبصور متعددة، كما لا تجد جانباً من الإسلام إلا وقد رُكِّز على إبراز بعض النقاط فيه، والهجوم عليها بشكل عنيف، كما تجد دعوات كثيرة تحاول أن تكون بديلاً عن الإسلام، تظهر بأسماء متعددة وبحركات منظَّمة .

واستطاع أعداء الإسلام هؤلاء أن يصلوا إلى مراكز التعليم الرسمية، فصاغوا قسماً كبيراً من ما مَرَّ ببرامج ومناهج، وكتب دراسية، أصبحت دراستها مفروضة على كل إنسان، مما أدى إلى تشويه صورة كل ما له علاقة بالإسلام، وفَقَدَ المسلمون من أنفسهم جمال كل ما له علاقة بالثقافة الإسلامية، حتى أصبحت الثقافة الإسلامية مهزومة على أرضها .

واضطربت بعد هذا الموازين . . فأصبح بيد كل مسلم ميزان يختلف عن ميزان الآخر، حتى عادت موازين الكتاب والسُنَّة وكأنها مفقودة، فمثلاً : ميزان الصدق مع الله عبَّرت عنه الآيات التالية :

(أ) ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ** ﴾ [الأحزاب :٢٣] .

فالصادق إما رجل قُتِلَ فى سبيل الله أو ينتظر ذلك .

(ب) ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

فالصادق من جميع بين الإيمان والجهاد .

(جـ) ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ[1] وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ[2] أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧]

فالصادق مَن جمع بين هذا كله مع صدق اللسان .

ولكن مسلمى اليوم منهم مَن يعتبر الصدق هو أن يذكر الله فقط، ومنهم مَن يعتبره صدق اللسان فقط، ومنهم مَن يعتبره كذا، ومنهم مَن يعتبره كذا، والميزان الأساسى مضيع . .

ومثل آخر . . إنَّ ميزان الإيمان فى الإسلام قد عبر عنه فى الكتاب والسُنَّة بمثل ما يلى :

(أ) قال عليه السلام : « مَن رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه . . وذلك أضعف الإيمان »[3] ، فميزان الإيمان موقفك من المنكر .

(ب) وقال عليه السلام : « ما من نبى بعثه الله فى أُمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنَّته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فَمن جاهدهم بيده

---

(١) فى الرقاب : فى تحريرها من الرق أو الأسر .

(٢) حين البأس : وقت قتال العدو .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن لأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقبله فهو مؤمن . . ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[1] . فميزان الإيمان هو جهاد المنحرفين عن أمر الله .

(جـ) وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقاً** ﴾ [الأنفال : ٢–٤] .

هذا هو ميزان الإيمان فى الكتاب والسُّنَّة . أما المسلمون اليوم فبعضهم يعتبر الإيمان مجرد التصديق، وبعضهم يعتبره مجرد صفاء النفس، وبعضهم ليس له منه إلا شقشقة اللسان .

(٨)

وتضخمت بعد هذا جوانب من الإسلام، وضمرت جوانب فى حس المسلم، فأصبح الفرض منسياً، والنافلة كأنها فريضة، وما عظَّمه الله هوَّنه بعضهم، وما أعطاه الله حكماً ليِّناً جعله بعضهم غير ذلك، وهذه أمثلة :

(أ) بناء مسجد فى حى فيه خمسون مسجداً نافلة طيبة مأجور عليها مَن فعلها، ولكن وحدة المسلمين، وإقامة أحكام الله فى كل قُطر، وإقامة الدولة المُحَكِّمة لشرع الله فرائض، هذه الفرائض أصبحت وكأنها منسية، فإذا ما دعوتَ الناس لها لم يستجب إلا القليل، ولم ينفق الكثير قرشاً واحداً فى هذا السبيل . أما المشروع الأول فترى الإنفاق عليه لا حد له . إذا دعونا لعمارة الصخرة المشرَّفة، وتزيينها، انهالت الأموال، وإذا دعونا لحمايتها ضنُّوا بالقليل، فتكون النتيجة أن تذهب الصخرة بزينتها لتقع فى يد اليهود .

(ب) وحدة المسلمين فريضة، تحابهم فريضة، أخوتهم فريضة، تعاونهم مع بعضهم على الخير فريضة، ولاؤهم لبعضهم فريضة، عدم ولائهم للكافرين

---

(١) رواه مسلم فى كتاب « الإيمان »، باب « وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » عن عبد الله بن مسعود به مرفوعا .

OBEIKAN.COM

فريضة، هذه الفرائض كأنها أصبحت مباحات، فأبغض المسلمون بعضهم من أجل نافلة خلافية، وتفرَّقوا من أجل أمور بسيطة، وأعطى بعضهم ولاءه للكافرين، ومنعه المؤمنين، وكأن هذا كله أمر عادى، والرسول ﷺ يقول : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا »(١)، ويقول تعالى : ﴿ **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩] . أفبعد هذا الخلل خلل ؟

(٩)

والذين بقوا على الإسلام من المسلمين لم يحاولوا محاولة جادة الإحاطة بالجوانب التى لا غنى عنها للمسلم المعاصر من الثقافة الإسلامية التى تحارَب من كل جانب : تجد مسلماً يقرأ الفقه وينسى غيره، وتجد آخر يقرأ السُنَّة وينسى غيرها، وتجد آخر يقرأ الدراسات الإسلامية الحديثة وينسى غيرها، وتجد مسلما يقرأ شيئاً عن التاريخ الإسلامى وينسى غيره، وتجد مسلماً يهتم بأحوال المسلمين المعاصرة وينسى غيرها، وتجد مسلماً يهتم بدراسة المؤامرات على الإسلام وينسى غيرها، ونحن نُحبِّذ أن يوجد عندنا اختصاصيون فى كل جانب من هذه الجوانب وغيرها .

ولكن لا بد أن يكون عند المسلم حد أدنى من كل أصول الثقافة الإسلامية وفروعها، فإن لم يتيسر هذا لكل مسلم، فعلى الأقل، ينبغى أن يتوفر هذا فى القيادات العاملة لمجد الإسلام .

(١٠)

هذا تحليل سريع للوضع الثقافى والتربوى للمسلمين، ينتج عنه بشكل عفوى أن تكون تربية المسلم المعاصر ناقصة نقصاً مخيفاً، وغير متوازنة، ولا متكاملة .

---

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى فى كتاب « صفة القيامة » عن الزبير بن العوام، وابن ماجه فى « المقدمة » عن أبى هريرة. ومسلم وأبو داود فى كتاب « الأدب ».

OBEIKAN.COM

وقد كان هذا الكتاب من أجل معالجة هذا الوضع، إذ طرحنا فيه رأينا فى الثقافة الإسلامية المتكاملة وفى الأخلاق الأساسية التى ينبغى أن يتخلق بها كل مسلم .

جعلنا الكتاب قسمين :

القسم الأول : جند الله ثقافة .

القسم الثانى : جند الله أخلاقاً .

وأسأل الله أن يتقبل هذا الكتاب، وأن يضع له القبول . . فإنَّه حسبى ونِعْمَ الوكيل .

إنَّ بالإمكان حصر العلوم الإسلامية الضرورية للمسلم المعاصر بما يلى :

١- علم الأصول الثلاثة .
٢- الكتاب .
٣- السُنَّة .
٤- علم أصول الفقه .
٥- علم العقائد .
٦- علم الفقه .
٧- علم الأخلاق .
٨- السيرة والتاريخ الإسلامى .
٩- علوم العربية .
١٠- المؤامرات على الإسلام والأمة الإسلامية والتحديات التى تواجهها هذه الأمة .
١١- الدراسات الإسلامية المعاصرة .
١٢- فقه الدعوة .

فإذا ما أخذ المسلم المعاصر حظه من كل من هذه، أمكن أن يعرف طريقه فى هذه الفتن المدلهمة، وأمكنه بالتالى أن يسير على بصيرة فى عملية إنقاذ لهذه الأمة .

وها نحن نبدأ بالإشارة إلى كل علم من هذه العلوم على حدة، مبينين ضرورته ومكانته وأهميته . ونرجو ألا يصدر القارئ حكمه على جزء من هذا البحث قبل أن يتمه، وبعد ذلك فإننا نشكر كل مَن يلفت نظرنا إلى خير .

OBEIKAN.COM

١ - علم الأصول الثلاثة أو الإيمان

قد يعجب إنسان لم جعلنا هذا العلم هو البداية ؟ وسبب هذا العجب الغفلة عن معانى الكتاب والسُنَّة، فالدارس للكتاب والسُنَّة يرى أنَّ البداية التى ينبغى أن يبتدىء بها الإنسان هى علم الإيمان، الذى مظهره معرفة الأصول الثلاثة: الله والرسول . والإسلام، وتلك سُنَّة رسول الله ﷺ فى تربية أصحابه كما يذكرها ابن عمر وجندب فى أثرين متقاربين نكتفى منهما بأثر ابن عمر الذى رواه الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح . . يقول ابن عمر :

« لقد عشت برهة من دهرى وإن أحدنا يؤتَى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغى أن نقف عنده منها . . ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، ما يدرى ما آمره ولا زاجره، وما ينبغى أن يقف عنده، وينثره نثر الدقل »(١) .

وآيات القرآن تنص على أنَّ هذا القرآن لا يهتدى به مَن كان فى قلبه مرض الكفر والنفاق، مما يدل على أن تحصيل الإيمان هو مقدمة الاستفادة من القرآن، والآيات فى ذلك كثيرة منها :

﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** ﴾ [فصلت : ٤٤] .

﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً(٢) أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً** ﴾ [الكهف : ٥٧]

﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ**

---

(١) الدقل: ردىء التمر.

(٢) أكنة: أغطية كثيرة مانعة.

آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأمّا الّذين في قلوبهم مّرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥] . وعلم الإيمان حقيقته معرفة الأصول الثلاثة والرضا بها .

« ذاق طعم الإيمان مَن رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد - ﷺ - رسولاً »(١) .

ولما كان عصرنا مليئاً بالشبهات، فلابد أن تكون هذه المعرفة واعية متينة جيدة، وبنفس الوقت محيطة بالجوانب التي لا ينبغي أن تغيب عن ذهن المسلم .

ولما كان المسلم في صراع دائم مع الآخرين، فلا بد أن تكون حُجَّته واضحة فاضحة لغيرها، وهذا لا يتأتى له إلا بإحكام معرفة الكمال في هذه الأصول، ومعرفة النقص فيما سواها .

ويلاحظ أنَّ الدراسات الإسلامية القديمة لم تحاول أن تقوم بعملية إبراز الكلام عن هذه الأصول مجتمعة بشكل واسع، كما أنَّ الدراسات الحديثة كانت جزئية في الغالب، كل دراسة درست جزءاً من الإسلام، كما كان الكثير منها - مع جزئيتها - يقوم بدور دفاعي سلبي . لذلك كتبنا كتاب « الأصول الثلاثة » فكان محاولة جديدة قد لا تكون سلمت من نقص ولكنها محاولة جامعة شملت ما يلي :

١- البحث الأول : عن الله جَلّ جلاله .

٢- البحث الثاني : عن الرسول ﷺ .

٣- البحث الثالث : عن الإسلام .

وقد سرنا في الكتاب على الشكل التالي :

بيّنا أثناء الكلام عن الله الطرق التي توصل إلى الله، وبيّنا أنَّ دراسة الكون

---

(١) رواه مسلم عن العباس بن عبد المطلب في كتاب « الإيمان »، باب « ذاق طعم الإيمان »، ورواه الترمذي عنه وقال: هذا الحديث حسن صحيح.

OBEIKAN.COM

إحدى الطُرق، ثم درسنا تسع ظواهر كونية، كل ظاهرة تدلنا منفردة على الله، ثم نقلنا نقولاً فى مناقشة قضايا التوحيد، والطبيعة، والسببية . ثم تحدثنا عن دلالات الظواهر وكيف أنها تدلنا على الله وصفاته وأسمائه، ثم عقدنا مقارنة بين الإسلام والديانات والأفكار التافهة القائمة الآن فى هذا الموضوع .

ثم انتقلنا للحديث عن الرسول ﷺ فقدَّمنا الكلام عن الإنسان ومكانه فى الوجود، والطرق التى يتعرف بها على الرسل، ثم طبَّقنا ذلك على رسالة رسولنا، فكتبنا خمسة فصول عن صفاته، ومعجزاته، ونبوءاته، وثمراته، والبشارات به، وبيَّنا فى كل فصل كيف أن موضوعه يدلنا بما لا يقبل الشك على أن محمداً رسول الله .

ثم انتقلنا للحديث عن الإسلام . فكتبنا مقدمة عن تعريف الإسلام، وأربعة فصول، فصلاً عن أركان الإسلام، وفصلاً عن المنهاجين الأخلاقى والاجتماعى فيه، وفصلاً عن المناهج العامة فيه، وفصلاً عن المؤيدات لهذا الدين .

ويبدو أنَّ هذه العملية ضرورية بشكل عام كى تكون جزئيات الإسلام مرتبطة بكلِّياتها، وكى يكون الاقتناع بالإسلام، والتصديق برسوله، والإيمان بالله الذى أنزله عليه متيناً . وتلك سُنَّة الصحابة مع ملاحظة أن التوسع فى ذلك شىء اقتضته طبيعة عصرنا هذا .

* * *

OBEIKAN.COM

٢- الكتاب

فى بحث « الرسول ﷺ » من كتابنا « الأصول الثلاثة »، تحدَّثنا فى الفصل الثانى منه عن المعجزة القرآنية بشكل مفصَّل . ونحب الآن أن نستعرض جوانب سريعة وقصيرة للتذكير بالكتاب، ثم نشير إلى بعض علوم الكتاب لنذكر ما ينبغى أن يعطيه المسلم كل أهمية فى تكوينه :

(١)

● إن هذا الكتاب من عند الله لا شك فى ذلك ولا ريب، وتفصيل ذلك فيما أشرنا إليه آنفاً . . قال تعالى :

﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٣-٢٤] .

﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وإذا كان هذا الكتاب من عند الله . . فليس أمام الإنسان اختيار فى أن يهتدى بهديه أو يعرض، بل الإنسان مكلَّف باتباعه ومحاسَب على ذلك :

﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٣] ، ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا** ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، ﴿ **اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [الأنعام : ١٠٦] .

﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ [يونس : ١٠٩]

OBEIKAN.COM

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[1] [الجاثية:١٨] .

● ومهما اتبع الناس هذا الكتاب فإنهم وقتذاك على الطريق الأهدى والأقوم والأرحم والأحكم والأعلى :

﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] ، ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّه نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِه اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ[2] وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِه وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة:١٥-١٦]، ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف:٤]، ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية:٢٠] ، ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٨] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء:١٧٤] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧] .

وليس للإنسان إذا أراد الحق إلا هذ الطريق، ولن يكون مستقيماً أو على صراط مستقيم إلا بهذا القرآن :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ من رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِه وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس:١٠٨] ، ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ ﴾ [الرعد:١] ، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ﴾ [يونس:٣٢] ، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِه ﴾ [الأنعام:١٥٣] ، ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠]

---

(١) شريعة من الأمر: طريقة ومنهاج من الدين.

(٢) سبل السلام: طرق السلامة.

● ولا يعرض عن القرآن، ولا يتنكب سبيله، ولا يجحد به إلا جاهل، إذ هو العلم الذى لا جهل معه :

﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت:٤٩] ، ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ** ﴾ [سبأ:٦] ، ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ** ﴾ [فصلت:٤١-٤٢] ، ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة:١٤٥] .

وواضح أنَّ هذا القرآن ليس لإنسان دون إنسان، ولا لأمة دون أمة، بل هو لكل إنسان، لكل الشعوب، لكل الأمم :

﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾ [الفرقان:١] ، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء:١٠٧] ، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ [الأعراف:١٥٨] . .

● **وقد وعد الله من اتبعه :**

﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى** ﴾ [طه:١٢٣] ، ﴿ **فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة:٣٨] .

﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً**(١) **وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**(٢) **أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى** ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦] .

---

(١) فى الدنيا.

(٢) فى الآخرة.

● ولا لقاء بين مَن اتبع كتاب الله ومَن أعرض عنه :

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ العِلْمِ ﴾ [النجم:٢٩-٣٠] .

وجهد أعداء الله كله ينصب كفراً وحقداً وحسداً وجهلاً حول إضعاف تمسك المسلم بإسلامه وقرآنه، وجعله ينحرف عن ذلك : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ[1] فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم:٩] ، ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ [الإسراء:٧٣-٧٥].

● لذلك كان أمر الله جازماً بالحذر من تضييع بعض القرآن أو طاعة أعداء الله فى جزء منه :

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٤٩-٥٠] .

قال عليه السلام : « إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم ولكن رَضِيَ أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا، إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنة نبيه »[2] .

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦]

وقد نبَّهنا الله فى كتابه أنه أنزل وحياً وكتباً على أمم قبلنا، وحذَّرنا أن نقع

---

(١) تدهن: تلاين.

(٢) قطعة من خطبته ﷺ فى حجة الوداع التى رواها الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله، وفيها زيادات من « الطبقات الكبرى » لابن سعد .

فيما وقعوا به من إثم، أو تقصير، أو تحريف، أو انحراف، أو تهاون، أو تواطؤ، أو تباطؤ، أو كفر، أو ضلال، وأمرنا أن نردد فى كل صلاة ما يُذكِّرنا بهذه الحقيقة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]..

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا(١) وَالرَّبَّانِيُّونَ(٢) وَالأَحْبَارُ(٣) بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ

---

(١) هادوا: اليهود.

(٢) الربانيون: جمع ربانى، أى العالم الزاهد.

(٣) الأحبار: علماء اليهود.

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

[المائدة: ٤٤ – ٤٨]

وقد انحرف أهل الإنجيل، وقد انحرف أهل التوراة، وناداناالله : يا أهل القرآن :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦] ، فلا نكن مثلهم فيما فعلوه ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ، ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة: ٥] ، ﴿ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٣] ، ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] . بأن حرَّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام فأطاعوهم .

وقبول تحكيم كتاب الله، ورضانا بحكمه، والتزامنا به، واعتصامنا به، هو دليل الإيمان، وإلا فهو الكفر والنفاق والوقوع فيما وقع فيه اليهود والنصارى من قبل:

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩] .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥١–٥٢] .

● هذا حال المؤمنين، وأما حال المنافقين الذين يدَّعون الإيمان دعوى :

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ *

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ (١) اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور٤٨-٥٠]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء: ٦٥] .

وإذا عرفنا كما مَرَّ معنا أنه ما من قضية من قضايا الوجود إلا ولله فيها حكم فلا مجال إذا عرف حكم الله ووضح، إلا التسليم : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب: ٣٦] . .

وأصلاً لا يتخذ المسلم قراراً، ولا يجزم رأياً، ولا يعتقد عقيدة، ولا يسارع إلى أمر، ولا يستجيب لدعوة، ولا ينفر إلى عمل، إلا بعد معرفة حكم الله المعرفة الجازمة، وعندئذ يحزم أمره على أساس أمر الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: ١] .

وفى ذلك الخير كله للمسلم حتى ولو كان فى ذلك قتله، أو نفيه، فإنَّ الاستسلام لله لا يأتى إلا بخير للفرد وللأُمة :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ [النساء: ٦٦]

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن

---

(١) أن يحيف: أى يجور.

﴿ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦]

﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧]

بعد هذه المقدمة عن القرآن بشكل عام نقول : إنَّ هناك جانبين لهما علاقة بالكتاب، أولهما : علوم الكتاب . ثانيهما : نص القرآن . والخط الكامل أن يجمع الإنسان بين نص الكتاب وعلومه .

* * *

(٢)

أول علوم القرآن العملية : « علم التلاوة » .

ويدخل فى علم التلاوة :

(أ) علم التجويد . (ب) أدب التلاوة .

أمرنا الله بالأول بقوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل:٤] .

وحسن لنا الثانى بقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة:١٢١] .

وقد اعتبر علماء التجويد أنَّ علم التجويد فرض على اعتبار أنَّ الإخلال بنطق القرآن إخلال بالمعنى . فمثلا قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] الألف الأخير تحتاج إلى مد، فلو لم نمدها نطقنا الكلمة هكذا: « لا تؤاخذن » وعندئذ تصبح النون نون النسوة ويصبح المعنى متغيراً .

ولذلك كان أول ما ينبغى أن يعلمه المسلم مما له علاقة فى الكتاب هو :

أن يتعلم تلاوة كتاب الله، وأن يتعرف على آداب هذه التلاوة، وقد ألِّفت

OBEIKAN.COM

فى هذا وهذا كتب كثيرة، ورسائل بعضها مطوَّل، وبعضها قصير، منها فى علم التجويد : « فن الترتيل » و « فن التجويد » و « هداية المستفيد »، ومنها فى أدب التلاوة : « التبيان » للنووى، أو كتاب « أداب التلاوة » فى « الإحياء » للغزالى.

* * *

(٣)

ومن علوم القرآن علم القراءات، وذلك أنَّ القرآن الكريم يُقرأ على عدد من القراءات تستوعب لهجات العرب المختلفة، وطريقتهم فى النطق، وقد كُتِبَ فى القراءات القرآنية كتب كثيرة، ومؤلَّفات ضخمة، ونظمت منظومات طويلة تتضمن جزئيات هذا العلم، وأهم الكتب المؤلَّفة فى هذا الموضوع : « النشر فى القراءات العشر » لابن الجزرى .

غير أنَّ علم القراءات لا يجب على المسلمين عامة، وإنما الواجب أن يختص به بعض المسلمين، ولذلك فإنَّ العلماء يعتبرون هذا العلم من العلوم المفروضة فرض كفاية، والذى يكفى المسلم أن يتقن قراءة من القراءات الصحيحة، والقراءة الصحيحة هى التى توَّفرت فيها ثلاثة شروط :

١ – النقل المتواتر عن رسول الله ﷺ .

٢ – موافقة الرسم العثمانى للمصحف ولو احتمالاً .

٣ – انطباق القراءة على وجه من أوجه العربية .

فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تُقبل القراءة وكانت شاذة، والقراءات الصحيحة المتلقاة بالقبول عشر، وهى تمثل عدد الروايات المعتبرة للقرآن عن رسول الله ﷺ بلهجات مختلفة، والأصل الذى يُرجع إليه هو ما ذكرناه آنفاً .

والقراءات يُوضِّح بعضها معانى القرآن، ويُفهِم بعضها معانى جديدة، وتحفظ بها لغات العرب ولهجاتها، وتُرَى بها إرادة الله اليسر بهذه الأمة .

ونشأ مع القرآن ثلاثة علوم :

١- علم الناسخ والمنسوخ . ٢- علم أسباب النزول وأمكنة النزول .

٣- علم غريب القرآن .

أما علم الناسخ والمنسوخ فسبب وجوده أنَّ هناك أحكاماً تدَّرج الأمر فيها حتى استقر، وهناك أشياء حُرِّمت ثم أُبيحت لحكمة، وهناك قضايا اقتضتها ظروف خاصة، ثم استقر الحكم فيها على شيء آخر، ولا يُفهم كتاب الله ولا سُنَّة رسوله ﷺ فهماً كاملاً إلا بمعرفة هذا العلم، وبدون هذه المعرفة يبقى الإنسان معرَّضاً للخطأ . مَرَّ ابن عباس بقاص فقال : تدرى ما الناسخ والمنسوخ ؟ قال : وما الناسخ والمنسوخ ؟ قال : ما تدرى الناسخ والمنسوخ ؟ قال : لا قال : هلكت وأهلكت .

وأما علم أسباب النزول وأمكنة النزول :

فإنَّ القرآن قد نزل خلال فترة ثلاث وعشرين سنة تقريباً، بعضه نزل فى مكة وبعضه نزل فى المدينة، وبعضه نزل فى أماكن خاصة معيَّنة، كما أنَّ لبعض آياته أسباباً نزلت عندها، والصحابة الذين رافقوا هذه الفترة كانوا يستوعبون هذا استيعاباً تاماً، حتى قال ابن مسعود ـ كما فى صحيح البخارى : « والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأعلم فيم نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه » .

ومعرفة أسباب النزول تساعد على فهم الآيات المرافقة للسبب، إذ السبب يعيَّن معنى رئيسياً من معانى الآيات التى وردت فيه مع ملاحظة أنَّ خصوص السبب لا يُقيِّد عموم اللفظ .

ومن أقرب المراجع إلينا فى هذا العلم وسابقه :

١- « الناسخ والمنسوخ » لابن حزم .

٢- « لباب النقول فى أسباب النزول » للسيوطى .

وأما علم غريب القرآن :

فإنَّ القرآن على سهولة أخذه ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ (١) [القمر:١٧] . فإنه نزل بلغة العرب، واستعمل ألفاظاً مشهورة عند بعض دون بعض مما جعل بعض الصحابة كعمر يسأل عن معانى بعض ألفاظه. هذا فى العصر القريب لتنزل القرآن، ثم كلما زاد اختلاط الناس بعضهم ببعض، وابتعد الناس عن الإحاطة باللغة العربية، استشعر بعض الناس غرابة بعض ألفاظ القرآن عليهم، مما حمل بعض العلماء على أن يكتبوا بخصوص هذا المعنى كتباً حول غريب القرآن، أقربها كتاب « كلمات القرآن . . تفسير وبيان » لخلوف .

ولا شك أنَّ كل تال للقرآن عليه أن يأخذ حظه من كل ما مَرَّ ما عدا علم القراءات الذى قلنا إنه فرض كفاية . وحبَّذا لو جُمِعَت هذه الأشياء اللازمة لكل مسلم فى كتاب واحد يضم :

١- « التبيان فى آداب حملة القرآن » للنووى .

٢- رسالة جيدة فى التجويد .

٣- أسباب النزول .

٤- الناسخ والمنسوخ .

٥- غريب القرآن .

مع التعليق عليها وأصبح هذا الكتاب جزءاً من مكتبة كل مسلم . وحبَّذا لو مَرَّ كل مسلم على دورة يختم فيها كتاب الله مرة، مع دراسة هذه كلها أثناء هذه الختمة .

* * *

---

(١) ومدكر: معتبر، متعظ به .

OBEIKAN.COM

(٥)

ونشأ منذ عصر الصحابة « علم تفسير القرآن »، فقد أصبح الناس يسألون بعض الصحابة عن معانى بعض الآيات، وبعض الصحابة كانوا على علم كامل فى معانى القرآن، وكانوا يُفسِّرون القرآن مع إقرائه، أو بدون إقرائه، حتى رُوِىَ أنَّ ابن عباس فسَّر مرة سورة البقرة فى الحج، تفسيراً لو سمعه اليهود والنصارى والمجوس لأسلموا (١) .

وبذلك بدأ علم التفسير، ثم أخذ ينمو نمواً مطرداً ويتنوع، ولما وُجِدَت الفرق الإسلامية أصبحت هذه الفرق تحاول أن تُفسِّر القرآن حسب آرائها، وأصبح فى بعض الأحيان يتبع التفسير الرأى، ولا يتبع الرأى القرآن، وهذا الذى حذَّر منه رسول الله ﷺ حين قال : « مَن قال فى القرآن بغير علم - وفى رواية : برأيه - فليتبوا مقعده من النار » (٢)، فالتفسير بالهوى هو الضلال، وليس طبعاً التفسير الذى يقوم على فهم سليم للغة العربية، وفهم دقيق للسُنَّة وأقوال الصحابة .

وتنوعت التفاسير بتنوع أغراض المفسِّرين، فبعضهم فسَّر القرآن بلاغياً ولُغوياً، وبعضهم كان قصده توضيح أحكام القرآن، وأراد بعضهم فهم إشارات القرآن، حتى أصبح بين أيدى المسلمين آلاف التفاسير .

منها المختصر، ومنها المطوَّل، ومنها الواضح، ومنها الرمزى .

والملاحَظ على هذه التفاسير كلها : أنَّ أيًّا من أصحابها لم يخل تفسيره للقرآن من ثقافة العصر الذى هو فيه . وكل مفسِّر فسَّر القرآن بما وصل إليه علمه.

فعندما كان القول بأنَّ الأرض مسطَّحة هو السائد نجد مَن فسَّر آيات القرآن بأنها تقول بذلك، كتفسير الجلالين مثلاً، ونجد فى المقابل مَن فسَّر آيات القرآن بأنها تقول بالكروية، كابن حزم .

---

(١) وفى رواية : « سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا ». (ابن كثير: جـ ١، ص ٨ طبعة دار الأندلس).

(٢) رواه الترمذى عن ابن عباس به مرفوعاً وقال : هذا حديث حسن صحيح.

والمشكلة أنَّ ثقافة عصر من العصور قد تكون فيها أخطاء، فإذا ما حُمِلَ القرآن عليها وأخذ هذا الحمل طابع الاعتقاد تكون النتائج تحميل القرآن هذا الخطأ وهو لا يحتمله .

إنَّ القرآن يُفسِّر بعضه بعضاً ولا يتناقض .

وإنَّ السُنَّة الصحيحة تُفسِّر القرآن ولا تتناقض معه ولا مع بعضها .

وفهم الصحابة إذا اجتمعوا حُجَّة .

وهذا كله لا يتناقض مع حقيقة ـ هى حقيقة ـ كما رأينا فى بحث المعجزة القرآنية فى كتابنا « الأصول الثلاثة » .

أما ما عدا هذا فليس حُجَّة فى فهم القرآن، بل القرآن حُجَّة عليه، وما عدا هذا فليس معصوماً . فإذا علمنا أنَّ ما قاله رسول الله ﷺ فى تفسير ألفاظ القرآن ـ لا أحكامه ـ قليل، وكذلك ما أثِرَ عن الصحابة بالنقل الصحيح إذا قيس بالنسبة لمجموع القرآن أدركنا أنَّ مجال فهم القرآن فيه متسع كثير للقول، ومتسع كثير للخلاف، ومتسع كثير بالتالى للفهم الخاطئ حسب ما تقدمه ثقافة العصور، خاصة إذا علمنا أنَّ القرآن تحدَّث عن كل شىء مما يؤدى إلى أن يجعل المفسِّر يتحدث عن كل شىء .

* * *

(٦)

ومع تطور علم التفسير نشأت الدراسات القرآنية المحددة ذات الموضوع الواحد قديماً وحديثاً .

فصار بعض العلماء يفردون قصص القرآن بتأليف، وإعراب القرآن كذلك، وبلاغة القرآن كذلك، وإعجاز القرآن كذلك، وأحكام القرآن، وأقسام القرآن، والإيجاز فى القرآن، ومتشابه القرآن، والسيرة من القرآن، والقرآن والعلم الحديث، والقرآن والطب الحديث، والقرآن والجيولوجيا . . . والقرآن واليهود . . .

وجغرافية القرآن، والأخلاق فى القرآن، وآيات التشريع فى القرآن، ومحكم القرآن.

كما صاروا يفردون علوم القرآن بشكل مستقل.

مما توسعت معه المكتبة القرآنية سعة هائلة، حتى إنك لا تجد شيئاً صغيراً ولا كبيراً مما له علاقة بالقرآن إلا وقد ألِّفت فيه الكتب المفردة المطوَّلة والمختصرة، كما إنك تجد أى موضوع قد تناوله أكثر من مؤلف بأكثر من طريق.

* * *

(٧)

ونشأ أخيراً علم فهارس القرآن.

فجَرت محاولات من أجل جمع مواضيع القرآن بعضها إلى بعض، بحيث قُسِّمت مواضيع القرآن وجُمعت تحت كل موضوع الآيات الواردة فيه ككتاب « تفصيل آيات القرآن الكريم »، كما ألِّفت معاجم القرآن التى تساعد على معرفة الآية ومحلها من القرآن بمعرفة كلمة من كلمات الآية، ومن المعاجم المطبوعة : « المعجم المفهرس » لمحمد فؤاد عبد الباقى، « المرشد » لفارس بركات.

* * *

(٨)

كما نشأ كأثر عن دخول أناس غير عرب فى الإسلام، أو كمحاولة لعرض القرآن على الأمم الأخرى علم « ترجمة معانى القرآن »، ثم تطور هذا كأثر من آثار حركة الاستشراق، وكأثر من آثار الدعوة إلى الإسلام إلى أن أصبحت معانى القرآن مترجمة إلى أكثر لغات العالَم، بل أصبح للقرآن فى بعض اللغات أكثر من ترجمة لمعانيه.

وإنما قلنا : ترجمة لمعانى القرآن وليست ترجمة للقرآن ذاته لأنه يستحيل

ترجمة القرآن ذاته بما فيه من إعجاز، وبما فى اللغة العربية من معان متعددة للحرف الواحد، والكلمة الواحدة، والجملة الواحدة، بحيث يستحيل معه أن يجزم إنسان بأنَّ مراد الله هو كذا .

* * *

(٩)

وهناك كتب حاولت أن تجمع الحديث عن كثير مما له علاقة بالقرآن وعلومه، من تاريخ جمع القرآن، إلى قراءاته، إلى متشابهه، إلى ناسخه ومنسوخه، إلى مجمَلة ومفصَّله، إلى قضية كتابة القرآن، إلى عمليات تسهيل القراءة، إلى غير ذلك مما له علاقة بالقرآن، ككتاب : « الاتقان فى علوم القرآن » للسيوطى « والبرهان فى علوم القرآن » لبدر الدين الزركشى، وكتاب : « مناهل العرفان فى علوم القرآن » للزرقانى .

والمسلم غير المختص قد يكفيه كتاب مختصر فى هذا كله ـ من كتابة عالم ثقة ـ والمختصرات تحت هذا العنوان ـ علوم القرآن ـ كثيرة .

وبعد . . فإننا ندعو المسلم فيما له علاقة بكتاب الله زيادة على ما مَرَّ إلى ما يلى :

أولاً : أن يديم تلاوة كتاب الله، وقد كانت تلاوة كتاب الله دأب الصحابة وعملهم الدائم .

روى أبو داود عن أوس بن حذيفة : سألتُ أصحاب النبى ﷺ كيف يُحزِّبون القرآن ؟ قال : « ثلاث، وخمس، وسبع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصَّل وحده » .

وفى الحديث الصحيح عن ابن عمرو بن العاص : قلت : يا رسول الله، فى كم أقرأ القرآن ؟ قال : « اختمه فى شهر » . قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك، قال : « اختمه فى خمسة عشر »، قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك، قال :

« اختمه فى عشر » ، قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك، قال : « اختمه فى خمس »، قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك، فما رخَّصَ لى [1] .

وفى رواية أخرى : « فإنه لا يفقه مَن قرأه فى أقل من ثلاث » .

ومن العبارة الأخيرة عنه عليه السلام نفهم أنَّ التلاوة ينبغى أن يرافقها فقه وتدبر وتذكر . قال تعالى : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص:٢٩] .

ولمسلم عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله ﷺ : « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان [2] أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما، اقرأوا سورة البقرة فإنَّ أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة » .

وللترمذى عن ابن عباس : قال رجل : يا رسول الله، أى العمل أحبُّ إلى الله ؟ قال : « الحال المرتحل » قال : وما الحال المرتحل ؟ قال : « الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حَلَّ ارتحل » .

وللترمذى عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : « مَن قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول : آلم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » .

وفى الحديث القدسى : « مَن شغلته قراءة القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » [3] .

---

(١) رواه الدارمى، ورواه أيضًا الإمام أحمد والشيخان والنسائى وأبو داود والترمذى والطيالسى من طرق بسياق فيه اختلاف يسير.

(٢) الغيابة: كل شئ أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة وغيرها.

(٣) رواه الترمذى وله تتمة وهى: « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه »، قال الترمذى: هذا الحديث حسن غريب.

ولمسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خلفات [1] عظام سمان » ؟ قلت : نعم . قال : « فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم فى صلاة خير له من ثلاث خلفات عظام سمان » .

ثانياً : أن يحفظ من كتاب الله أو يحفظ كتاب الله مع العلم والعمل .

روى البخارى وأبو داود والترمذى ومسلم والنسائى عن عثمان عن رسول الله ﷺ : « خيركم مَن تعلَّم القرآن وعَلَّمه » .

وللترمذى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتِّل كما كنتُ ترتِّل فى دار الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرأ بها » .

وللترمذى عن علىّ عن رسول الله ﷺ : « مَن قرأ القرآن فاستظهره فأحَلَّ حلاله وحرَّم حرامه أدخله الله به الجنة وشفَّعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت له النار » .

وللترمذى عن رسول الله ﷺ : « تَعلَّموا القرآن واقرأوه وقوموا به، فإنَّ مثل القرآن لمن تعلَّمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل مَن تعلَّمه ويرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أوكِىَ على مسك »[2].

وروى الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن السلمى : « حدثنا مَن كان يُقرئنا من أصحاب النبى ﷺ أنهم كانوا يأخذون منه ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون فى العشر الآخر حتى يعلموا ما فى هذه من العلم قال : فتعلمنا العلم والعمل » .

وعن ابن عمر قال : « لقد عشتُ برهة من دهرى وإنَّ أحدنا يؤتَى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغى أن نقف عنده منها . . . ثم لقد رأيتُ رجالاً يؤتَى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ

---

(١) الخلفة : الحامل من النوق، وتُجمع على : خلفات، وخلائف .

(٢) الوكاء : ما يُشَد به رأس القربة، وأوكى : شد بالوكاء .

ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدرى ما آمره ولا زاجره وما ينبغى أن يقف عنده، ينثره نثر الدقل »[1] .

ثالثاً : أن يعتاد المسلم على الرجوع إلى كلام المفسِّرين .

والمفسِّرون والتفاسير أنواع : فمنهم المذهبى، ومنهم الجامع، ومنهم المفسِّر بالمأثور، ومنهم مَن اعتنى بالنحو والبلاغة، ومنهم . . . ومنهم .

ولا ننسى ما ذكرناه من أنَّ كل مفسَّر فسَّر القرآن بثقافة عصره أو بثقافة من ثقافة عصره، فاحتمال الخطأ وارد، والذى يبدو أنَّ المسلم بحاجة إلى تفسير مختصر يتعرف به على غريب القرآن، وتفسير مذهبى يساعده على فهم أدلة إمامه فى الفقه، وتفسير المأثور ليبقى على صلة بأقوال السَلَف . وتفسير حديث لثقة يتعرف به على نص القرآن من خلال ثقافة العصر الذى يعيش فيه .

مثال الأول « تفسير الجلالين » . . . ومثال الثانى : « تفسير أبى السعود » فى مذهب الحنفية . . . ومثال الثالث « تفسير ابن كثير » . . . ومثال الرابع « فى ظلال القرآن » لسيد قطب . . .

ولا ننسى دائماً فكرة احتمال الخطأ، والعودة فى كل نص ندرسه إلى مجموعة هذه الكتب تعرفنا على مظنة الخطأ لنحقق فيه ونسأل العلماء .

لقد كانت محاولة سيد قطب فى « ظلاله » محاولة جديدة لإعطاء النصوص مدلولاتها التربوية والحركية وربطها بواقع الحياة المعاصرة، وإبراز جمالها وجلالها، واستعلائها وكمالها، فكان كتابه أداة تربية قرآنية لا مثيل لها .

فلا يضيع الإنسان بوقوفه عند الوسائل، بل يجعله دائماً على صلة بالغايات التى أرادها النص، ولا شك أنه ليس معصوماً، ولكن عمله كان عملاً فذاً فى تاريخ المكتبة القرآنية، فلا يستطيع مسلم حريص على فهم القرآن والتأثر به والتفاعل معه أن يتغافل أو يستغنى عن هذا الكتاب .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح، والدقل: أردأ التمر.

وفى الختام نحب أن نشير إلى بعض القضايا :

أولاً : من الناس مَن يهجر كتاب الله بُحجَّة اشتغاله بغيره من ذِكر أو علوم شرعية، وذلك عذر قبيح، ومن الناس مَن يهجر الذكر والعلوم الأخرى الضرورية بحجة كتاب الله، وذلك جاهل بعصره، ومقصِّر فى فهم كتاب الله .

فكتاب الله يأمرنا أن نفهمه، وهذا لا يتأتى بدون دراسة للغة العربية والسُنَّة والسيرة وعلوم القرآن، وكتاب الله يأمرنا بالعلم والتعلم وسؤال أهل العلم، والرجوع إلى أهل الاستنباط لفهم المشاكل، وكتاب الله ذكر أنَّ من المؤمنين سمَّاعين للمنافقين، وهذا يقتضى من المؤمنين وعياً لا يتم إلا بمعرفة أحوال العصر، والكافرين ومؤامراتهم . . . وهكذا .

إنَّ الناس فى إفراط أو تفريط، والسُنَّة الوسط، فكتاب الله لا تعدل به شيئاً آخر، ولكن لا تنس تنفيذ أوامره فى العلم والعبادة والوعى والجهاد وغير ذلك.

لقد رأينا أناساً يقرأون فى الشهر مرات ، ويوالون أعداء الله موالاة لا تشبه الموالاة، ورأينا ناساً يحاربون أعداء الله ولا يعرفون أن يقرأوا كتاب الله، ورأينا ناسا يقضون أوقاتهم فى ذكر الله وحظهم من كتاب الله قليل . والمراد هو أن يجمع الإنسان بين أطراف الخير، ويبتعد عن الشر، وذلك لا يتم بدون معرفة كتاب الله وطاعة أمره فى كل شىء، بالعلم والذِكر والوعى والجهاد. . .

وبعض الناس يشتغلون بقراءة التفاسير عن التلاوة، وقراءة التفاسير جيدة على شرط ألا تهمل تلاوة كتاب الله، فالله عَزَّ وجَلَّ جعل كتابه مفسَّراً واضحاً بيِّناً : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر:١٧] .

إننا بدون التلاوة نفقد التذكر اللازم، ونفقد الحالات الإيمانية العالية، فالله عَزَّ وجَلَّ وصف تأثر المؤمنين بالقرآن بقوله :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً(1) مَّثَانِيَ(2) تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّه ﴾ [الزمر:٢٣]، ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ [مريم:٥٨]، ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾

[الإسراء:١٠٧-١٠٩]

إنَّ هذه المعانى لا يحصِّلها الإنسان إلا بتلاوة دائمة لكتاب الله وتدبر لمعانيه، ليحيا قلبه فتجيش فيه هذه المعانى .

إنَّ قراءة النكت البلاغية، والإعرابات النحوية، ومعرفة القراءات والوقوف عند المعانى الدقيقة . والتوسع فى معرفة ما شملته الآية من أحكام، كل هذا جيد ويزيد الإيمان ولكن لا يعطينا تذكراً شاملاً لكل ما ينبغى أن نتذكره ولا يثير إحساساتنا العالية الرقيقة كما تثيره التلاوة الدائمة، لذلك كانت التلاوة شيئاً أساسياً فى حياة المسلم .

لقد كان القرآن بالنسبة إلى الصحابة محور كل شيء عندهم، ثم أصبح القرآن منسياً عند مسلمى عصرنا، فلا بد من عودة طيبة للكتاب يصلح بها آخرنا كما صلح أولنا، وانظر هذا النص لتدرك مقدار حرص الصحابة على الاشتغال بالقرآن دون سواه :

عن جابر بن عبد الله بن يسار قال : سمعتُ علياً يقول : « أعزم على كل مَن كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حين اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم » .

فلا بد أن يكون لنا وردنا اليومى من كتاب الله تلاوة فى المصحف لمن لم

---

(١) كتابًا متشابهًا: فى إعجازه وهدايته وخصائصه.
(٢) مثانى: مكررًا فيه الأحكام والمواعظ وغيرهما.

يحفظ، أو كان حفظه غير جيد، وقد ذكر العلماء أنَّ القراءة فى المصحف أعظم أجراً، والحد المعتدل أن نختم القرآن فى الشهر مرة، وفى ذلك ضمان حياة القلب، وضمان حياة المعانى الإسلامية فى أنفسنا . لأن القرآن ما ترك شيئاً يحتاج المسلم أن يتذكره دائماً إلا وذكره مع ذكره لكل شىء .

ولذلك كان القرآن أفضل الذكر وأعظمه، لأنَّ الأذكار الأخرى تُذكِّر المسلم بشىء فقط . فالتسبيح مثلاً على فضله فى الإسلام فإنه يذكِّرنا بتنزيه الله، وذلك أمر عظيم، ولكن التلاوة الدائمة لكتاب الله تذكِّرنا بالتنزيه، وبصفات الله كلها، وبأركان الإيمان كلها، وبالعمل و . . . فلا يبقى شىء إلا وقد تذكرناه .

ولذلك فإنَّ الأصل فى حياة الصحابة هو قراءة القرآن، ثم يأتى الذكر، أما فى عصرنا فبعض الناس لا يقرأون ولا يذكرون، وبعضهم يذكرون وليس لهم حظ من القرآن، وهؤلاء أجود من الذين قبلهم، ولكن أجود من الجميع مَن كان له حظه اليومى من كتاب الله وكان له مع ذلك ذكر دائم، فهذا الذى أخذ بعضدى الأمر إن أصاب الإخلاص .

ولا بد أن تكون تلاوتنا لكتاب الله سليمة صحيحة مركَّزة مرتَّلة .

ولا بد أن تكون لنا معرفة بمفردات القرآن .

ولا بد أن يكون لنا إلمام بناسخ القرآن ومنسوخه، وأسباب النزول، ولا بد أن تكون لنا همة فى حفظ بعض كتاب الله أو حفظه كله، وأن يكون لنا قيام من الليل نقرأ فيه من هذا الحفظ، وأن يكون لنا مع هذا كله تدبر لكتاب الله، فإن فعلنا هذا رجونا أن نكون أخذنا حظنا من كتاب الله، ورجونا ألا نكون من الذين هجروه :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .... ﴾

[البقرة : ١٢١]

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾

[الفرقان : ٣٠]

وقد يجد الإنسان فى قلبه غفلة عن معانى كتاب الله فيقرأ وقلبه منصرف أو غافل، وقد عبَّر عن ذلك ابن عمر بما مَرَّ معنا، ووصف رسول الله ﷺ ناساً بقوله : « يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم »(١) .

وهذا شيء سببه إما فساد العقيدة، أو موت القلب، أو انصرافه، وقد أشار الله إلى هذه المعانى فقال عن الأول : ﴿ **وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ** ﴾ [الأنعام:٢٥] . وقال عن الثانى والثالث : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾(٢) [ق:٣٧] .

وقد يكون هناك سبب رابع هو الكبر فى قلب الإنسان . فقد قال الله تعالى : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً** ﴾ [الأعراف:١٤٦] .

فأما السبب الأول والرابع فعلاجهما تصحيح العقيدة، فقد يجتمع النفاق وتلاوة القرآن كما فى الحديث : « . . . . ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل ريحانة ريحها طيب وطعمها مر »(٣) .

وأما السبب الثانى والثالث فعلاجهما كثرة قراءة القرآن، فالله عَزَّ وجَلَّ خاطَبَ المؤمنين بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس:٥٧] . فما من مرض من أمراض القلب المؤمن إلا وفى تلاوة القرآن شفاؤه، أما القلب الفاسد العقيدة، فذلك له وضع آخر كما ذكرنا فى أكثر من موضع : ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا**

---

(١) رواه ابن ماجه فى المقدمة، باب « ذكر الخوارج » عن جابر بن عبد الله وقال فى الزوائد : إسناده صحيح، ورواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى فى كتاب « التوحيد » بإبدال لفظ « تراقيهم » : بحناجرهم .

(٢) وهو شهيد : حاضر بالقلب .

(٣) رواه مسلم والترمذى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعًا، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

﴿ هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤]

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ [1] وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥] . لاحظ كلمة « كافرون »، فمن كان مؤمناً وكان فى قلبه غفلة أو انصراف عن كتاب الله فإنه إذا داوم على التلاوة وأكثرَ منها سيزول هذا المعنى عن قلبه، فكتاب الله شفاء كما ذكر الله عَزَّ وجَلَّ.

ثانياً : أنَّ هناك سوراً وآيات ندبنا لقراءتها يومياً .

وهناك سور ندبنا لقراءتها أسبوعياً .

وهناك سور ندبنا لقراءتها بشكل خاص، وهناك آيات وسور فيها نصوص خاصة، فليلاحظ المسلم ذلك:

١- فى الحديث الصحيح : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » [2] .

وللبخارى وأبى داود والنسائى عن أبى سعد بن المعلا عن رسول الله ﷺ : « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد »، ثم أخذ بيدى، فلما اراد أن يخرج قلت : ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : « الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » .

٢- وروى الطبرانى فى « الكبير » والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضى الله عنه: أنَّ النبى ﷺ قال : « مَن قرأ عشر آيات : أربعاً من أول البقرة وآية الكرسى وآيتين بعدها وخواتيمها، لم يدخل ذلك البيت شيطان حتى يصبح » .

---

(١) رجساً إلى رجسهم: كفراً إلى كفرهم.

(٢) رواه الجماعة عن عبادة بن الصامت.

OBEIKAN.COM

وقد ورد فى آية الكرسى فى الحديث الصحيح عن أبَىّ بن كعب أنَّ رسول الله ﷺ قال له : « يا أبا المنذر، أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم » ؟ قلت : ﴿ **اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ** ﴾ [البقرة:٢٥٥] . فضرب فى صدرى وقال : « ليهنك (١) العلم أبا المنذر » . .

وفى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه : أنه عندما نقل إلى رسول الله ﷺ قول شيطان سارق وهو : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية ﴿ **اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ** ﴾ [البقرة:٢٥٥] . وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ولن يقربك شيطان حتى تصبح، علَّق على هذا الكلام رسول الله ﷺ بقوله : « أما إنه صدقك وهو كذوب » .

وللشيخين وأبى داود والترمذى عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : « مَن قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » .

٣- للترمذى عن معقل بن يسار عن رسول الله ﷺ : « مَن قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وَكَّلَ الله به سبعين ألف مَلَك يُصَلُّون عليه حتى يمسى، وإن مات فى يومه مات شهيداً، ومَن قرأها حين يمسى فكذلك » .

٤- روى النسائى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : مَن قرأ ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ** ﴾ [الملك:١] . كل ليلة، منعه الله بها من عذاب القبر، وكنا فى عهد رسول الله ﷺ نسميها المانعة وإنها فى كتاب الله عَزَّ وجَلَّ سورة مَن قرأ بها فى ليلة فقد أكثر وأطاب .

ولأبى داود والترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ ـ واللفظ للترمذى : « من القرآن سورة، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غُفِرَ له وهى : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ** ﴾ [الملك:١] .

---

(١) أى هنيئًا لك - والحديث لمسلم وأبى داود.

OBEIKAN.COM

٥ – للترمذى عن جابر أنَّ النبى ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ : ﴿ **آلم * تَنزِيلُ** ﴾ [السجدة:١-٢]، و ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾[١] [الملك:١] ، قال طاوس : تفضلان على كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة .

ولمالك عن حميد بن عبد الرحمن : « أنَّ ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص:١] ثلث القرآن، وأنَّ ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ [الملك:١] تجادل عن صاحبها فى قبره » .

٦– عن عبد بن حبيب رضى الله عنه أنه قال : خرجنا فى ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ ليصلى لنا، فأدركناه فقال : « قل » . فلم أقل شيئاً ثم قال : « قل » . فلم أقل شيئاً ثم قال : « قل »، فقلت : يا رسول الله، ما أقول ؟ قال : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص:١] والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شىء »[٢] .

وللترمذى عن أنس أنَّ النبى ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هل تزوجتَ يا فلان » ؟ قال : لا والله ولا عندى ما أتزوج . قال : « أليس معك : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص:١] » ؟ قال : بلى . قال : « ثلث القرآن » . قال : « أليس معك : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ [النصر:١] » ؟ قال بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : « أليس معك : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ﴾ [الكافرون:١] »؟ قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : أليس معك ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ** ﴾ [الزلزلة:١] »؟ قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : « تزوج تزوج » .

وفى رواية : « مَن قرأ : ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ** ﴾ عدلت له بنصف القرآن » .

---

(١) أى سورتى السجدة، والملك.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وقال الترمذى: حديث صحيح.

٧- عن ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : « مَن قرأ كل ليلة سورة الواقعة لم تصبه فاقة، وفى المسبحات آية كألف آية »[١] .

٨- للدارمى بإرسال عن عطاء بن أبى رباح قال : بلغنى أنَّ رسول الله ﷺ قال : « مَن قرأ يس فى صدر النهار قُضيتْ حوائجه » .

وروى أحمد والنسائى وأبو داود وغيرهم عن معقل بن يسار رضى الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « قلب القرآن « يس » لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له . أقرأوها على موتاكم » .

٩- وروى الترمذى والأصبهانى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « مَن قرأ ﴿ حم ﴾ [الدخان : ١] فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف مَلَك » .

١٠- روى النسائى والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ : « مَن قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين » .

١١- وروى الطبرانى فى « الأوسط » و « الكبير » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قرأ السورة التى يُذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلَّى الله عليه وملائكته حتى تغيب الشمس » .

١٢- لأبى داود عن ابن عمرو بن العاص : أتى رجل إلى النبى ﷺ فقال : أقرئنى يا رسول الله، فقال : « اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء » فقال : كبر سنِّى واشتد قلبى وغلظ لسانى قال : « فاقرأ ثلاثاً من ذوات حم » فقال مثل مقالته الأولى قال : « اقرأ ثلاثاً من المسبحات » فقال مثل مقالته الأولى وقال : أقرئنى سورة جامعة، فاقرأه ﷺ « إذا زلزلت » حتى فرغ منها فقال الرجل : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليها شيئاً أبداً، ثم أدبر الرجل فقال ﷺ : « أفلح الرويجل » مرتين .

---

(١) لرزين، ورواه البيهقى فى « شُعب الإيمان » عن ابن مسعود وفيه أبو شجاع : منكر الحديث - والعمل بالحديث الضعيف فى فضائل الأعمال مشهور عند أهل العلم .

OBEIKAN.COM

١٣- للترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « لكل شىء سنام، وإنَّ سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن : آية الكرسى » .

ولمسلم والترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنَّ الشيطان يفر من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة » .

ولمسلم عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله ﷺ : « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ـ أو غيابتان ـ أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما، اقرأوا سورة البقرة فإنَّ أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البَطَلة » .

زاد فى رواية : « ما من عبد يقرأ بها فى ركعة قبل أن يسجد ثم سأل الله شيئا إلا أعطاه، إن كانت لتحصى الدين كله » .

وللترمذى عن أبى هريرة : « بعث النبى ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم فقرأ كل رجل ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال : « ما معك أنت يا فلان » ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة قال : « أمعك سورة البقرة » ؟ قال : نعم . قال : « اذهب فأنت أميرهم فإنها إن كادت لتحصى الدين كله » فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى يا رسول الله أن أستلمها إلا خشية أن لا أقوم بما فيها . فقال ﷺ : « تعلَّموا القرآن واقرأوه وقوموا به، فإنَّ مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل مَن تعلمه ويرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أوكِىَ على مسك » .

١٤- « مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ﴾ [التكوير:١]، و ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ** ﴾ [الانفطار:١] ، و ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ** ﴾ [الانشقاق:١] .

ومن أراد الحفظ فهو بالخيار فى أن يبدأ بالسور التى ورد فيها آثار أو يبدأ بالمفصَّل : فعن ابن عباس قال: جمعتُ المحكم فى عهد النبى ﷺ . فقال ابن جبير : وما المحكم . قال : « المفصَّل »[1] .

وكانت أكثر قراءة رسول الله ﷺ فى صلاة الفريضة من المفصَّل، روى مالك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « ما من المفصَّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعتُ رسول الله ﷺ يؤم بها الناس فى الصلاة المكتوبة » .

* * *

(١) قصار سور القرآن والتى تبدأ من سورة «الحجرات» إلى «الناس» فى الأصح – والحديث رواه البخارى.

OBEIKAN.COM

٣- السُّنة (*)

(١)

١- إنَّ كتاب الله لا يُفهم فهماً تطبيقياً بدون السُّنَّة . فمثلاً القرآن أمر بالصلاة، والسُّنَّة هى التى أرشدتنا إلى كيفية هذا الأمر، وكذلك الزكاة هى التى حددت نسبتها، وهكذا بقية الإسلام . لذلك كان من اتباع كتاب الله اتباع سُنَّة رسول ﷺ : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾[النساء : ٨٠] ، ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ [النساء : ١٠٥] ، ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [النحل : ٤٤] ، ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [النحل : ٦٤] ، ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى** ﴾ [النجم : ٣] .

وعدا على ذلك فإنَّ الرسول ﷺ هو المظهر العملى للقرآن من الناحية التطبيقية .

« كان خُلُقه القرآن » (١) فكان أسوة لكل إنسان : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ [الأحزاب : ٢١] ولذلك كانت السُّنَّة هى الأصل الثانى .

٢- ولما تقدَّم فإنه لا فرق بين طاعة الله تعالى فى كتابه وطاعة رسوله فى سُنَّتِه من حيث المعنى، فطاعة الله طاعة لرسوله، وطاعة رسوله طاعة له، إذ لا يأمر

(*) توسعنا فى النقول والحديث عن هذا الجانب بسبب عملية التشكيك الجاهلية التى يثيرها أعداء الله حول السنَّة.

(١) رواه أحمد وأبو داود عن عائشة ومسلم عن حكيم بن حزام بلفظ مشابه.

الرسول إلا بما أمر الله عَزَّ وجَلَّ به : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠]، وقد انصبت أوامر القرآن مبينة هذا المعنى حتى لا يبقى فيه لبس: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [المائدة:٩٢]، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣] ، ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر:٧] ، ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٢] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤] .

وحيث وردت طاعة الله فذلك طاعة كتابه ، وحيثما وردت طاعة الرسول ﷺ فتلك طاعة سُنَّته، فهما متلازمان : « تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ » (١) ، « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهو متكىء على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله تعالى، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه، وإنّ ما حرَّم رسول الله (ﷺ) كما حرَّمه الله » (٢)، « ألا وإنى أوتيتُ الكتاب ومثله معه » (٣)، « مهما أوتيتم من كتاب الله فلا عذر لأحد فى تركه، فإن لم يكن فى كتاب الله فسُنَّة نبى ماضية » (٤) ، « . . . . فعليكم بسُنَّتى وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين عُضُّوا عليها بالنواجذ » (٥) .

---

(١) قطعة من خطبته ﷺ فى حجة الوادع فى العام العاشر للهجرة (ابن كثير فى السيرة) .

(٢) رواه الترمذى عن المقدام بن معديكرب الكندى، وابن ماجه وأبو داود بألفاظ متقاربة وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) قطعة من الحديث السابق من رواية أبى داود عن المقدام بن معديكرب.

(٤) رواه مسلم عن ابن عباس كما فى كتاب « السُنَّة ومكانتها فى التشريع الإسلامى » للعلاَّمة الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله فى ص (٦٠) بلفظ: « وما أوتيتم من كتاب الله فالعمل به لا عذر لأحد فى تركه، فإن لم يكن فى كتاب الله فسُنَّة نبى ماضية ».

(٥) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود، وأبو داود والترمذى من رواية العرباض بن سارية وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

وحيثما وردت الحكمة ممتنا بها علينا بجانب الكتاب فإنما هى السُّنَّة لا غير: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤] .

﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الجمعة: ٢]

﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥١] .

﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾ [الأحزاب: ٣٤] . وما كن يسمعن إلا حديث النبى ﷺ .

٣- وحيثما كانت السُّنَّة فلا يسع مسلماً أن يتجاوزها :

« جاء ثلاثة رهط إلى بيوت رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها قالوا : أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غُفرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأُصلِّى الليل أبداً، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله إنى أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتى فليس منى »[1] .

وروى مالك : « أنَّ رجلاً من الصحابة أرسل امرأته تسأل رسول الله ﷺ عن حكم تقبيل الصائم لزوجته، فأخبرتها أم سلمة رضى الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يُقَبِّل وهو صائم، فرجعت إلى زوجها فأخبرته فقال : لست مثل

---

(١) رواه الشيخان والنسائى عن أنس مرفوعاً.

رسول الله ﷺ، يُحلُّ الله لرسوله ما يشاء، فبلغ قوله ذلك رسول الله ﷺ فغضب وقال: « إنى أتقاكم لله وأعلمكم بحدوده » .

وأخرج الشيخان : « صنع رسول الله ﷺ شيئاً ترخَّص فيه، فتنزَّه عنه قوم، فبلغه ذلك فخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

وحين بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن قال : « كيف تقضى إذا عرض لك قضاء » ؟ قال : أقضى بكتاب الله . قال : « فإن لم يكن فى كتاب الله » ؟ قال : فبسُنَّة رسول الله ﷺ ، قال : « فإن لم يكن فى سُنَّة رسول الله ﷺ » ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسولَ رسول الله لما يُرضى رسول الله ﷺ » (١) .

ولم يزل سَلَف الأمة على هذا :

(أ) كان عمر رضى الله عنه يقول : الدية للعاقلة ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً . حتى أخبره الضحاك بن سفيان أنَّ رسول الله ﷺ كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابى من ديته فرجع إليه عمر .

(ب) قال عمر : أذكِّر الله امرءاً سمع من النبى ﷺ فى الجنين شيئاً، فقام حمل بن مالك بن النابغة فقال : كنت بين جاريتين لى - يعنى ضرتين - فضربت إحداهما الأخرى بمسطح فألقت جنيناً ميتاً فقضى رسول الله ﷺ بغرة، فقال عمر : « لو لم أسمع به لقضينا غيره » .

(جـ) باع معاوية بن أبى سفيان سقاية من ذهب - أو وَرِق - بأكثر من وزنها، فقال له أبو الدرداء : سمعتُ رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا . فقال معاوية : ما أرى بهذا بأساً . فقال أبو الدرداء : « مَن يعذرنى من معاوية ؟ أخبره عن رسول الله ﷺ ويخبرنى عن رأيه، لا أساكنك بأرض » .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى، وقال الترمذى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندى بمتصل.

OBEIKAN.COM

وقال أبو سعيد الخدرى فى حادثة أخرى من هذا القبيل لرجل : « والله لا آوانى وإياك سقف بيت أبداً » .

(د) عن ابن أبى ذئب عن مخلد بن خفاف قال : « ابتعتُ غلاماً فاستغللته، ثم ظهرتُ منه على عيب فخاصمتُ فيه إلى عمر بن عبد العزيز فقضى لى برده وقضى علىَّ برد غلته، فأتيتُ عروة فأخبرته فقال : أروح إليه العشية فأخبره أنَّ عائشة أخبرتنى أنَّ رسول الله ﷺ قضى فى مثل هذا : « أن الخراج بالضمان » ، فعجلت إلى عمر فأخبرته ما أخبرنى عروة عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ فقال عمر رضى الله عنه : ما أيسر علىَّ من قضاء قضيته، الله يعلم أنى لم أرد فيه إلا الحق فبلغتنى فيه سُنَّة عن رسول الله ﷺ فأرد قضاء عمر وأنفذ سُنَّة رسول الله ﷺ . فراح إليه عروة فقضى لى أن آخذ الخراج من الذى قضى به علىَّ له » .

(هـ) وروى ابن أبى ذئب قال : قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية برأى ربيعة بن أبى عبد الرحمن، فأخبرته عن النبى ﷺ بخلاف ما قضى به فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبى ذئب ـ وهو عندى ثقة ـ يخبرنى عن النبى ﷺ بخلاف ما قضيتُ به فقال له ربيعة : قد اجتهدتَ ومضى حكمك، فقال سعد : واعجْبا، أنفذ قضاء سعد ابن أم سعد وأرد قضاء رسول الله ﷺ ؟ بل أرد قضاء سعد ابن أم سعد وأنفذ قضاء رسول الله ﷺ، فدعا سعد بكتاب القضية فشقه وقضى للذى قضى عليه .

وقال أبو حنيفة : « إذا صَحَّ الحديث فهو مذهبى » . وقال : « إذا قلتُ قولاً يخالف كتاب الله وخبر الرسول ﷺ فاتركوا قولى » .

وقال الإمام مالك : « إنما أنا بشر أخطىء وأصيب، فانظروا فى رأيى فكل ما وافق الكتاب والسُنَّة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسُنَّة فاتركوه » .

وقال: « ليس أحد بعد النبى ﷺ إلا ويُؤخذ من قوله ويُترك إلا النبى ﷺ » .

وقال الشافعى : « ما من أحد إلا وتذهب عليه سُنَّة لرسول الله ﷺ وتغرب عنه، فمهما قلتُ من قول أو أصَّلتُ من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولى » .

وقال : « أجمع المسلمون على أنَّ مَن استبان له سُنَّة عن رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد » .

وقال : « إذا وجدتم فى كتابى خلاف سُنَّة رسول الله ﷺ فقولوا بسُنَّة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت » .

وقال : « إذا صَحَّ الحديث فهو مذهبى » .

وقال : « أنتم أعلم بالحديث والرجال منى، فإذا كان الحديث الصحيح فأعلمونى به أى شىء يكون : كوفياً أو بصرياً أو شامياً حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً » .

وقال الإمام أحمد : « مَن رَدَّ حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة » .

وقال : « وإنما الحُجَّة فى الآثار » .

٤- ونعنى هنا بالسُنَّة ما يعنيه الأصوليون بها وهى :

« ما نُقِلَ عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير » ، وذلك لأنَّ علماء الأصول هم الذين بحثوا عن رسول الله ﷺ المشرع الذى يضع القواعد ويبيِّن للناس دستور الحياة .

وأما المحدثون فمفهومهم عن السُنَّة أوسع، إذ هى فى اصطلاحهم : ما أثرَ عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية (بكسر الخاء) أو خُلُقية (بضمها) ، أو سيرة سواء أكان قبل البعثة أو بعدها، فهى عندهم أوسع منها فى إصطلاح الأصوليين .

هذه السُنَّة لا يتجاوزها إلى غيرها بعد ثبوتها إلا متهم، وتلك كانت سُنَّة الخلفاء الراشدين، التثبت من السُنَّة حتى إذا ثبت لم يلتفتوا عنها .

روى ابن شهاب عن قبيصة أنَّ الجدة جاءت إلى أبى بكر رضى الله عنه تلتمس أن تُورَّث فقال : ما أجد لك فى كتاب الله شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال : كان رسول الله ﷺ يعطيها السدس . فقال له : هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بذلك فأنفذه لها أبو بكر رضى الله عنه . .

وروى الجريزى عن أبى نضرة عن أبى سعيد أنَّ أبا موسى رضى الله عنه سلَّم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن له فرجع، فأرسل عمر رضى الله عنه فى أثره فقال : لمَ رجعتَ ؟ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إذا أستأذن أحدكم فلم يؤذن له فليرجع » قال : لتأتينى على ذلك ببيِّنة أو لأفعلن بك، فجاء أبو موسى رضى الله عنه منتقعاً لونه ونحن جلوس فقلنا : ما شأنك ؟ فأخبرنا وقال : فهل سمع أحد منكم ؟ فقلنا : نعم، كلنا سمعه، فأرسلوا رجلاً منهم حتى أتى عمر فأخبره .

* * *

(٢)

لما كان للسُنَّة ما رأينا من المكانة .

ولما كان المسلم أول ما يفعل أثناء البحث عن حكم الله أن يرجع إلى الكتاب، ثم إلى السُنَّة كما روى أبو داود والترمذى : أنَّ النبى ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: « بمَ تقضى » ؟ قال : بكتاب الله . قال: « فإن لم تجد »؟ قال : فبسُنَّة رسول الله ﷺ . قال : « فإن لم تجد » ؟ . قال : أجتهد رأيى ولا آلو . .

وكتب عمر بن الخطاب إلى شريح : انظر ما تبيَّن لك فى كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً، وما لم يتبيَّن لك فى كتاب الله فاتبع فيه سنّة رسول الله ﷺ .

لهذا كله فإنَّ العلم بالسُنَّة ومعرفة مظانها لا بد منه للمسلمين . ولذلك

فسنحاول فى هذه الفقرة أن نتعرف بسرعة على كتب السُنَّة وما له علاقة بذلك[1] .

لا شك أنَّ الصحابة الذين سمعوا رسول ﷺ وعاشوا معه، وأخذوا منه وعنه، وعرفوا كل شيء عن رسول الله ﷺ هم معدن هذا العلم، ولا تستطيع الأمة بعدهم أن تأخذه إلا عنهم .

فكيف كان حمل الصحابة للسُنَّة ؟

المعروف أنَّ الرسول ﷺ نهى أول الأمر الصحابة أن يكتبوا حديثه ليكون الأثر الوحيد المكتوب هو القرآن، ثم بعد ذلك أذنَ إذناً خاصاً، ثم أمر أمراً عاماً . فقال أولاً : « لا تكتبوا عنى، ومَن كتب عنى غير القرآن فليمحه، وحدِّثوا عنى ولا حَرَج، ومَن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[2] .

وكتب عبد الله بن عمرو الحديث فى حياة رسول الله ﷺ ولم ينهه بل قال له : « اكتب، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه – وأشار إلى فمه – إلا حقاً » . ثم قال عام الفتح : « اكتبوا لأبى شاة »، فكان أمراً عاماً للأمة الإسلامية أن تكتب وإذناً .

ولكن الواقع أنَّ السُنَّة فى عصر رسول الله ﷺ كانت محفوظة أكثر منها مكتوبة، ولكنه حفظ متين لا يرقى إليه شك للأسباب التالية :

١– أنَّ الرسول ﷺ كان يعيد الكلمة ثلاثاً لتُعقل عنه .

٢– تربية أصحابه على الصدق، وحرص الصحابة وخوفهم من الكذب عليه .

٣– سهولة افتضاح أمر مَن كذب عليه وقتذاك لكثرة المراقبين أحواله والمرافقين له .

---

(١) هذا البحث من الآن فصاعداً أكثره منقول نقلاً حرفيًا من بعض المراجع كـ « المدخل إلى علوم السُنَّة » و« الباعث الحثيث » .

(٢) رواه مسلم.

OBEIKAN.COM

٤- قوة حافظة عجيبة عند العربى وهو فيها مضرب المثل . كل هذا يجعلنا على ثقة أنَّ حفظ الصحابة للسنة لا يرقى إليه شك .

ولما قُبِضَ رسول الله ﷺ كان الأمر على ما ذكرنا، إلا أنه بعد وفاته عليه السلام بدأ الناس يكتبون ما يعلمون أو ما يسمعون، ومَن يتتبع النصوص التى تدل على هذا يجدها كثيرة .

فعلىٌّ يذكر أنَّ معه صحيفة مكتوبة عن رسول الله ﷺ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يخرج كتاباً ويحلف أنه خط أبيه بيده، وعن سعيد بن جبير أنه كان يكون مع ابن عباس فيسمع منه الحديث فيكتبه فى واسطة الرَحل، فإذا نزل نسخه، وعن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : كنا نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع، فلما احتيج إليه علمتُ أنه أعلم الناس، وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه احترقت كتبه يوم الحرة فى خلافة يزيد .

وبقى الأمر على ذلك حتى جاء عمر بن عبد العزيز على رأس المائة للهجرة فأصدر أمره إلى عُمَّاله أمراء الأمصار وإلى علماء الأمة الإسلامية أن يُدوِّنوا السُنَّة تدويناً عاماً تاماً، وكان من كتابه إلى عامله وقاضيه على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : « انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإنى خفتُ دروس العلم وذهاب العلماء » .

والحقيقة أنَّ القرن الثالث هو العصر الذهبى لخدمة الحديث بما حفل من مدققين وممحصين وجامعين ومؤلفين .

ونتيجة لهذا الجهد المضنى استطاع العلماء أن يصدروا حكمهم فى كل حديث مروى عن رسول الله ﷺ .

فحكموا على حديث أنه صحيح، وعلى آخر أنه حسن، وعلى آخر بأنه ضعيف، وعلى بعضها بأنه مكذوب على رسول الله ﷺ ، وعلى بعضها أنه منكر، وعلى بعضها أنه شاذ، وعلى بعضها أنه منقطع، وعلى بعضها أنه مرسل، وعلى بعضها أنه مُعَل . . . وهكذا .

OBEIKANDI.COM

وكان حكمهم من الدقة بحيث لا يسع إنساناً أوتى شيئاً من العلم أن يقدح فى هذا الحكم، أو فى طريقة الوصول إلى هذا الحكم .

وهذه صورة عن تقسيمهم للحديث :

(أ) الصحيح : هو الحديث المسند الذى يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العَدل الضابط إلى منتهاه، ولا يكون شاذاً ولا معلَّلاً، ويخرج من ذلك المرسل، والمنقطع، والمعضل، والشاذ، وما فيه علة قادحة، وما فى راويه نوع جرح.

ويقصدون بالمرسل ما لم يذكر فيه الصحابى، والمنقطع ما سقط من سنده واحد فى موضع أو مواضع، والمعضل ما سقط منه إثنان فأكثر فى موضع أو مواضع، والشاذ ما خالف فيه الثقة لمن هو أوثق منه، وما كان فيه علة قادحة هو الحديث الذى اطُلِعَ فيه على علة تقدح فى صحته مع أن الظاهر سلامته منها، ويتطرق ذلك إلى الإسناد الذى رجاله ثقات، الجامع شروط الصحة من حيث الظاهر، وعلى هذا فعلِّة الحديث سبب غامض خفى قادح فى الحديث، مع أنَّ الظاهر السلامة منه، ويعرفون علِّة الحديث بجمع طرقه والنظر فى اختلاف رواته وفى ضبطهم وإتقانهم، فيقع فى نفس العالِم العارف بهذا الشأن أنَّ الحديث معلول، ويغلب على ظنه، فيحكم بعدم صحته أو يتردد فيتوقف فيه .

وأما ما فى راويه نوع جرح فهم الكذَّابون والوضَّاعون والمشتبَه بكذبهم، ومَن كان ضعيف الحفظ، أو غير ثقة، ومَن لم يرو عنه إلا واحد ولم يوثَّق فكان بذلك مجهولاً، ومَن لم يوجد فى توثيقه معتبر أو جاء فيه تضعيف ما، ومَن كان مستور الحال أو مجهوله، ومَن ليس له من الحديث إلا القليل، ومَن كان سيء الحفظ، أو يهم أو يخطىء، أو خرف وإن كان صادقاً، ومَن كان ذا بدعة تجعله يستبيح الكذب .

وقد حدد العلماء الحديث مَن تُقبل روايته بقولهم فى وصف الثقة

الضابط: « هو المسلم العاقل البالغ سالماً من أسباب الفسق وخوارم المروءة [1]، وأن يكون مع ذلك متيقظاً غير مغفل، حافظاً إن حدَّث من حفظه، فاهماً إن حدَّث على المعنى، فإن اختل شرط مما ذكرنا ردت روايته » .

(ب) الحديث الحسن : وهو كما قال ابن الصلاح، نوعان :

أحدهما : الحديث الذى لا يخلو رجال إسناده من مستور لم تتحقق أهليته، غير أنه ليس مغفلاً كثير الخطأ، ولا هو متهم بالكذب، ويكون متن الحديث قد روى مثله، أو نحوه من وجه آخر فيخرج بذلك من كونه شاذاً أو منكراً .

القسم الثانى : أن يكون راويه من المشهورين بالصدق والأمانة، ولم يبلغ درجة رجال الصحيح فى الحفظ والإتقان، ولا يُعَد ما ينفرد به منكراً، ولا يكون المتن شاذاً ولا معلَّلاً .

وهو فى الاحتجاج فيه كالصحيح عند الجمهور، ومما قال فيه الخطابى : ويستعمله عامة الفقهاء . . .

(جـ) الضعيف : وهو ما لم تجتمع فيه صفات الصحيح، ولا صفات الحسن المذكورة فيما تقدم، فيدخل فيه المقلوب [2]، والشاذ والمعلل، والمضطرب [3]، والمنقطع، والمعضل، وغير ذلك . . .

(د) الموضوع : هو المختلَق المصنوع وهو الذى نسبه الكذَّابون المفترون إلى رسول الله ﷺ وهو شر أنواع الرواية .

وقد جزم الشيخ أبو محمد الجوينى ـ والد إمام الحرمين ـ بتكفير مَن وضع

---

(١) كمن يركض بالأسواق أو يصرخ من غير حاجة.

(٢) وهو ما وقع فيه تقديم أو تأخير وهما، أو تغيير وتبديل كذلك، أما فى الإسناد بجعل اسم الراوى لأبيه أو اسم أبيه له كمرة بن كعب، وكعب بن مرة وهو الأكثر، أو بإبدال راو اشتهر الحديث بروايته براوٍ آخر فى طبقته.

(٣) وهو: أن يختلف الرواة فيه على شيخ بعينه، أو من وجوه أخر متعادلة لا يترجح بعضها على بعض.، وقد يكون تارة فى الإسناد، وقد يكون فى المتن.

حديثاً على رسول الله ﷺ قاصداً إلى ذلك عالماً بافترائه، وقد قال عليه السلام فى الحديث المتواتر : « مَن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

ومن أفظع ما أتى به بعض هؤلاء الوضَّاعين من حجج لتجويز ما فعلوه قولهم : إنهم يكذبون لرسول الله ﷺ لا عليه، فهؤلاء لم يكتفوا بالكذب بل استحلوه واستحبوه، وذلك أعظم الكفر وأكبر هادم للشريعة، عليهم لعنة الله وملائكته والناس أجمعين .

ومَن علم أنَّ حديثاً من الأحاديث موضوعاً فلا يحل له أن يرويه منسوباً إلى رسول الله ﷺ إلا مقروناً ببيان وضعه، وهذا الحظر عام فى جميع المعانى . سواء الأحكام، والقصص، والترغيب والترهيب وغيرها، لحديث سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « مَن حدَّث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » (١) .

وقوله : « يرى » فيه روايتان : بضم الياء وبفتحها ـ أى بالبناء للمجهول وبالبناء للمعلوم، وقوله : « الكاذبين » فيه روايتان أيضاً : بكسر الباء وبفتحها ـ أى بلفظ الجمع ولفظ المثنى، والمعنى على الروايتين فى اللفظين صحيح، فسواء علم الشخص أنَّ الحديث الذى يرويه مكذوب أم لم يعلم إن كان من غير أهلها وأخبره العالم الثقة بها، فإنه يحرم عليه أن يحدِّث بحديث مفترى على رسول الله ﷺ ، وأما مع بيان حاله فلا بأس، لأن البيان يزيل من ذهن السامع أو القارىء ما يخشى من اعتقاده نسبته إلى الرسول ﷺ .

ويُعرف وضع الحديث بأمور كثيرة يعرفها الجهابذة النُقَّاد من أئمة هذا العلم .منها : إقرار واضعه بذلك، كما روى البخارى فى التاريخ الأوسط عن عمر ابن صبح بن عمران التميمى أنه قال : أنا وضعتُ خطبة النبى ﷺ ، وكما أقر ميسرة بن عبد ربه الفارسى أنه وضع أحاديث فى فضائل القرآن، وأنه وضع فى

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه، ورواه أحمد وابن ماجه عن سمرة رضى الله عنه.

فضل علىّ سبعين حديثاً، وكما أقر أبو عصمة نوح بن أبى مريم الملقب بنوح الجامع أنه وضع على ابن عباس أحاديث فى فضائل القرآن سورة سورة .

ومنها ما ينزل منزلة إقراره، كأن يحدِّث عن شيخ بحديث لا يُعرف إلا عنده، ثم يُسئل عن مولده، فيذكر تاريخاً معيَّناً، ثم يتبين من مقارنة تاريخ ولادة الراوى بتاريخ وفاة الشيخ المروى عنه أنَّ الراوى وُلِدَ بعد وفاة شيخه، أو أنَّ الشيخ توفى والراوى طفل لا يدرك الرواية، أو غير ذلك . كما ادعى مأمون ابن أحمد الهروى أنه سمع من هشام بن عمار، فسأله الحافظ بن حبان : متى دخلتَ الشام ؟ قال : سنة خمسين ومائتين، فقال له : فإنَّ هشاماً الذى تروى عنه مات سنة (٢٤٥) فقال : هذا هشام بن عمار آخر .

وقد يُعرف الوضع أيضاً بقرائن فى الراوى، أو المروى عنه، أو فيهما معاً . فمن أمثلة ذلك : ما أسنده الحاكم عن سيف بن عمر التميمى قال : « كُنت عند سعد بن طريف، فجاء ابنه من الكُتَّاب يبكى، فقال : مالك ؟ قال : ضربنى المعلم، قال : لأخذينهم اليوم، حدَّثنى عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً : « معلمو صبيانكم شراركم، أقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المسكين » ، وسعد بن طريف هذا قال فيه ابن معين : « لا يحل لأحد أن يروى عنه » : وقال ابن حبان : « كان يضع الحديث » . وراوى القصة عنه، سيف بن عمر، قال فيه الحاكم : « أتهم بالزندقة وهو فى الرواية ساقط » .

وقيل لمأمون بن أحمد الهروى : « ألا ترى إلى الشافعى ومَن تبعه بخراسان؟ فقال : حدَّثنا أحمد بن عبد الله [1] ، حدَّثنا عبد الله بن سعدان الأزدى عن أنس مرفوعاً : « يكون فى أمتى رجل يقال له « محمد بن إدريس » أضر على أمتى من إبليس، ويكون فى أمتى رجل يقال له « أبو حنيفة » هو سراج أمتى » .

---

(١) كذا فى لسان الميزان جـ ٥ ص ٧، ٨، وفى التدريب ص ١٠٠ : أحمد بن عبد البر.

وكما فعل محمد بن عكاشة الكرمانى الكذَّاب . قال الحاكم : « بلغنى أنه كان ممن يضع الحديث حِسْبة، فقيل له : إنَّ قوماً يرفعون أيديهم فى الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال : حدَّثنا المسيب بن واضح، حدَّثنا عبد الله المبارك عن يونس بن يزيد عن الزهرى عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن رفع يديه فى الركوع فلا صلاة له » . فهذا مع كونه كذباً من أنجس الكذب، فإنَّ الراوية عن الزهرى بهذا السند بالغة مبلغ القطع وبإثبات الرفع عند الركوع وعند الاعتدال، وهى فى « الموطأ » وسائر كتب الحديث ». انتهى[1].

ومن القرائن فى المروى : أن يكون ركيكاً لا يعقل أن يصدر عن النبى ﷺ، فقد وُضعَت أحاديث طويلة، يشهد لوضعها ركاكة لفظها ومعانيها.

قال الحافظ ابن حجر : « المدار فى الركة على ركة المعنى، فحيثما وُجِدَت دلت على الوضع، وإن لم ينضم إليها ركة اللفظ، لأن هذا الدين كله محاسن . والركة ترجع إلى الرداءة، أما ركاكة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك، لاحتمال أن يكون رواه بالمعنى فغيَّر ألفاظه بغير فصيح . نعم إن صرح بأنه من لفظ النبى ﷺ فكاذب ».

وقال الربيع بن خثيم : « إنَّ للحديث ضوءاً كضوء النهار تعرفه، وظلمة كظلمة الليل تنكره » .

وقال ابن الجوزى : « الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم، وينفر منه قلبه فى الغالب » . قال البلقينى : « وشاهد هذا : أنَّ إنساناً لو خدم إنساناً سنين، وعرف ما يحب وما يكره فادعى إنسان أنه كان يكره شيئاً يعلم ذلك أنه يحبه، فبمجرد سماعه يبادر إلى تكذيبه » .

وقال الحافظ ابن حجر : ومما يدخل فى قرينة حال المروى ما نقل عن

---

(١) من لسان الميزان جـ ٥ ص ٢٨٨، ٢٨٩ .

الخطيب عن أبى بكر بن الطيب : أنَّ من جملة دلائل الوضع أن يكون مخالفاً للعقل، بحيث لا يقبل التأويل، ويلتحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة، أو يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية، أو السُنَّة المتواترة، أو الإجماع القطعى، أما المعارضة مع إمكان الجمع فلا، ومنها ما يصرح بتكذيب رواة جميع المتواتر، أو يكون خبراً عن أمر جسيم تتوفر الدواعى على نقله بمحضر الجميع، ثم لا ينقله إلا واحد، ومنها الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير أو الوعد العظيم على الفعل الحقير . هذا كثير فى حديث القُصَّاص، والأخير راجع إلى الركة .

قال السيوطى : ومن القرائن كون الراوى رافضياً والحديث فى فضائل أهل البيت .

ومن المخالف للعقل ما رواه ابن الجوزى من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده مرفوعاً : أنَّ سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً، وصلَّت عند المقام ركعتين، فهذا من سخافات عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد ثبت عنه من طريق أخرى نقلها فى التهذيب [1] عن الساجى عن الربيع عن الشافعى قال: « قيل لعبد الرحمن بن زيد : حدَّثك أبوك عن جدك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ سفينة نوح طافت بالبيت وصلَّت خلف المقام ركعتين » ؟ قال : نعم » ، وقد عُرِفَ عبد الرحمن بمثل هذه الغرائب حتى قال الشافعى فيما نُقِلَ فى التهذيب : « ذكر رجل لمالك حديثاً منقطعاً، فقال : أذهب إلى عبد الرحمن ابن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح » .

روى ابن الجوزى أيضاً من طريق محمد بن شجاع الثلجى عن حبان بن هلال عن حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة مرفوعاً : « إنَّ الله خلق الفرس فأجراها، فعرقت، فخلق نفسه منها » . قال السيوطى فى التدريب : « هذا لا يضعه مسلم، والمتهم به ـ محمد بن شجاع ـ كان زائغاً فى دينه وفيه أبو المهزم،

---

(١) جـ٦ ص ١٧٩ .

قال شعبة : رأيته لو أعطى درهماً وضع خمسين حديثاً » . والأسباب التى دعت الكذَّابين الوضَّاعين إلى الافتراء ووضع الحديث كثيرة، فمنهم الزنادقة، والذين أرادوا أن يفسدوا على الناس دينهم، لما وقر فى نفوسهم من الحقد على الإسلام وأهله، يظهرون بين الناس بمظهر المسلمين وهم المنافقون حقاً .

قال حماد بن زيد : « وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر ألف حديث » كعبد الكريم بن أبى العوجاء قتله محمد بن سليمان العباس الأمير بالبصرة على الزندقة بعد سنة (١٦٠) فى خلافة المهدى . ولما أخذَ لتُضرب عنقه قال : « لقد وضعتُ فيكم أربعة آلاف حديث، أحرمٌ فيها الحلال وأحلِّل الحرام » .

وكبيان بن سمعان النهدى من بنى تميم، ظهر بالعراق بعد المئة وادعى ـ لعنه الله ـ ألوهية علىّ كرم الله وجهه، وزعم مزاعم فاسدة . ثم قتله خالد بن عبد الله القسرى، وأحرقه بالنار .

وكمحمد بن سعيد بن حسان الأسدى الشامى المصلوب، قال أحمد بن حنبل : « قتله أبو جعفر المنصور فى الزندقة، حديثه حديث موضوع » .

وقال أحمد بن صالح المصرى : « زنديق ضُرِبَت عنقه، وضع أربعة آلاف حديث عند هؤلاء الحمقى، فاحذروها » .

وقال الحاكم أبو أحمد : « كان يضع الحديث، صُلِبَ على الزندقة » .

وحكى عنه الحاكم أبو عبد الله : أنه روى عن حميد عن أنس مرفوعاً : « أنا خاتم النبيين، لا نبى بعدى، إلا أن يشاء الله » . وقال : « وضع هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة والدعوة إلى التنبى » .

ومنهم أصحاب الأهواء والآراء التى لا دليل لها من الكتاب والسُنَّة، وضعوا أحاديث نُصرة لأهوائهم وآرائهم كالخطابية والرافضة وغيرهم . قال عبد الله بن يزيد المقرىء : « إنَّ رجلاً من أهل البدع رجع عن بدعته، فجعل يقول : « انظروا هذا الحديث عمَّن تأخذونه، فإنَّا كنا إذا رأينا رأياً جعلنا له حديثاً » .

وقال حماد بن سلمة : « أخبرنى شيخ من الرافضة أنهم كانوا يجتمعون على وضع الأحاديث » .

ومنهم القُصَّاص يضعون الأحاديث فى قصصهم، قصداً للتكسب والارتزاق، وتقريباً للعامة بغرائب الروايات، ولهم فى هذا غرائب وعجائب، وصفاقة وجه لا توصف .

كما حكى أبو حاتم البستى : أنه دخل مسجداً فقام بعد الصلاة شاب فقال : « حدَّثنا أبو خليفة، حدَّثنا أبو الوليد عن شعبة عن قتادة عن أنس » ... وذكر حديثاً، قال أبو حاتم « فلما فرغ دعوته فقلت : رأيتَ أبا خليفة ؟ قال : لا . قلت : كيف تروى عنه ولم تره ؟ قال : إنَّ المناقشة معنا من قلة المروءة، أنا أحفظ هذا الإسناد . فكلما سمعتُ حديثاً ضممته إلى هذا الإسناد » .

وأغرب منه ما روى ابن الجوزى بإسناده إلى أبى جعفر بن محمد الطيالسى قال : « صلَّى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فى مسجد الرصافة . فقام بين أيديهم قاص، فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا : حدَّثنا عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً منقاره من ذهب، وريشه من مرجان ... وأخذ فى قصة نحواً من عشرين ورقة . فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى ابن معين وجعل يحيى بن معين ينظر إلى أحمد، فقال له : حدَّثته بهذا ؟ فيقول : والله ما سمعتُ هذا إلا الساعة، فلما فرغ من قَصصه وأخذ العطيات، ثم قعد ينتظر بقيتها، قال له يحيى بن معين بيده : تعال، فجاء متوهماً لنوال، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فقال : أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله ﷺ . فقال : لم أزل أسمع أنَّ يحيى بن معين أحمق، وما تحققتُ هذا إلا الساعة، كأن ليس فيها يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، وقد كتبتُ عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فوضع أحمد كمه على وجهه وقال : دعه يقوم . فقام كالمستهزىء بهما » .

وأكثر هؤلاء القُصَّاص جُهَّال تشبهوا بأهل العلم، واندسوا بينهم . فأفسدوا كثيراً من عقول العامة .

ويشبههم بعض علماء السوء الذين اشتروا الدنيا بالآخرة، وتقرَّبوا إلى الملوك والأمراء والخلفاء بالفتاوى الكاذبة، والأقوال المخدوعة التى نسبوها إلى الشريعة البريئة، واجترأوا على الكذب على رسول الله ﷺ إرضاءً للأهواء الشخصية، ونصراً للأغراض السياسية، فاستحبوا العمى على الهدى .

كما فعل غياث بن إبراهيم النخعى الكوفى الكذَّاب الخبيث ـ كما وصفه إمام أهل الجرح والتعديل « يحيى بن معين » : فإنه دخل على أمير المؤمنين المهدى، وكان المهدى يحب الحمام ويلعب به، فإذا قدامه حمام، فقيل له : حدِّث أمير المؤمنين فقال : حدثنا فلان عن فلان أنَّ النبى ﷺ قال : « لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر أو جناح » ، فأمر له المهدى ببدرة، فلما قام قال : أشهد على قفاك أنه قفا كذَّاب على رسول الله ﷺ . ثم قال المهدى : أنا حملته على ذلك، ثم أمر بذبح الحمام ورفض ما كان فيه .

وفعل نحواً من ذلك مع أمير المؤمنين الرشيد فوضع له حديثاً : أنَّ رسول الله ﷺ كان يُطيِّر الحمام، فلما عرضه على الرشيد قال : اخرج عنى، فطرده عن بابه .

وكما فعل مقاتل بن سليمان البلخى من كبار العلماء بالتفسير، فإنه كان يتقرب إلى الخلفاء بنحو هذا .

حكى أبو عبيد الله وزير المهدى قال : « قال لى المهدى : ألا ترى إلى ما يقول لى هذا ـ يعنى مقاتلاً ـ ؟ قال : إذا شئت وضعتُ لك أحاديث فى العباس . قلت : لا حاجة لى فيها » .

وشر أصناف الوضَّاعين وأعظمهم ضرراً قوم ينسبون أنفسهم إلى الزهد والتصوف، لم يتحرجوا عن وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب احتساباً

للأجر عند الله، ورغبة فى حض الناس على عمل الخير واجتناب المعاصى ـ فيما زعموا ـ وهم بهذا العمل يُفسدون ولا يُصلحون .

وقد اغتر بهم كثير من العامة وأشباههم، فصدَّقوهم، ووثقوا بهم، لما نسبوا إليهم من الزهد والصلاح، وليسوا موضعاً للصدق وأهلاً للثقة .

وبعضهم دخلت عليه الأكاذيب جهلاً بالسُنَّة لحسن ظنهم، وسلامة صدورهم، فيحملون ما سمعوه على الصدق ولا يهتدون لتمييز الخطأ من الصواب، وهؤلاء أخف حالاً، وأقل إثماً من أولئك .

ولكن الوضَّاعين منهم أشد خطراً، لخفاء حالهم على كثير من الناس، ولولا رجال صدقوا فى الإخلاص لله، ونصبوا أنفسهم للدفاع عن دينهم، وتفرغوا للذب عن سُنَّة رسول الله ﷺ، وأفنوا أعمارهم فى التمييز بين الحديث الثابت وبين الحديث المكذوب وهم أئمة السُنَّة وأعلام الهدى . لولا هؤلاء لاختلط الأمر على العلماء والدهماء، ولسقطت الثقة فى الأحاديث .

رسموا قواعد للنقد، ووضعوا علم الجرح والتعديل، فكان من عملهم علم مصطلح الحديث » ، وهو أدق الطرق التى ظهرت فى العالَم للتحقيق التاريخى، ومعرفة النقل الصحيح من الباطل .

فجزاهم الله عن الأمة والدين أحسن الجزاء، ورفع درجاتهم فى الدنيا والآخرة، وجعل لهم لسان صدق فى الآخرين .

وقد قيل لعبد الله بن المبارك الإمام الكبير: هذه الأحاديث الموضوعة؟ فقال: تعيش لها الجهابذة ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر:٩] صدق الله العظيم .

ومن الأحاديث الموضوعة المعروفة : الحديث المروى عن أُبَىّ بن كعب مرفوعاً فى فضائل القرآن سورة سورة وقد ذكره بعض المفسِّرين فى تفاسيرهم، كالثعلبى والواحدى والزمخشرى والبيضاوى، وقد أخطأوا فى ذلك خطأً شديداً.

قال الحافظ العراقى : « لكن مَن أبرز إسناده منهم كالأولين ـ يعنى الثعلبى والواحدى ـ فهو أبسط لعذره . إذ أحال ناظره على الكشف عن سنده، وإن كان لا يجوز له السكوت عليه . وأما مَن لم يُبرز سنده وأورده بصيغة الجزم، فخطؤه أفحش » .

وأكثر الأحاديث الموضوعة كلام اختلقه الواضع من عند نفسه، وبعضهم جاء لكلام بعض الحكماء، أو لبعض الأمثال العربية، فركَّب لها إسناداً مكذوباً، ونسبها إلى سول الله ﷺ على أنها من قوله .

إذا استوعبتَ ما مَرَّ تعرف كذب الذين يريدون أن يشككوا فى السُنَّة وكتبها من مرتَدين، وكافرين، ومنافقين، وجاهلين حتى فيما لا يحتمل أخذاً ورداً، ككتاب البخارى رحمه الله، أو الكتب الستة كلها فضلاً عن غيرها .

ولكنه الضلال الذى لا يعرف حياءاً ولا خجلاً، والخيانة التى لا تعرف علماً ولا تحقيقاً، والوقاحة التى لا تعرف حداً تنتهى إليه، والجهل الذى عَمَّ حتى صار الناس يصدَّقون بسببه ما لا يُصدَّق . ويتبعون ما ينبغى أن يوضع .

وبعد ما تقدَّم نقول : إنَّ الذى يريد أن يختص بعلم الحديث ـ وذلك لا شك فرض كفاية ـ عليه أن يتقن كل ما له علاقة بهذا الموضوع إتقاناً تاماً، وأما غير المختصين فالذى يحتاجون إليه هو الاطمئنان إلى كون السُنَّة قد مُحِّصَت وبلغتنا بلاغاً كاملاً، وأنَّ الجهد الذى بذله علماء المسلمين فى هذا الموضوع كان بالغاً حد الإتقان، وأنه يوجب الاطمئنان لما وصلوا إليه من نتائج . والشىء الثانى الذى يحتاجونه هو دراسة السُنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ أو المقبول العمل بها وإن لم تصل إلى درجة الصحة والحسن بالقدر الذى يستطيعه المسلم، ولكل مسلم وضعه، وحاله وفراغه وطاقته، فليأخذ من ذلك القدر الذى يستطيعه بالشكل الذى لا يتأثر فيه أخذه للقرآن .

فقد يكون مناسباً لمسلم أن يقرأ « الأربعين النووية » ويحفظها، ويصعب

عليه غيرها، وقد يكون مناسباً لآخر أن يقرأ « الأذكار » للنووى، أو « رياض الصالحين » أو هما معاً .

وقد يكون مناسباً لآخر أن يقرأ « هداية الباري فى تجريد صحيح البخارى »، أو الصحيح نفسه أو الكتب الستة كلها، وقد يكون مناسباً لآخر أن يقرأ « تيسير الوصول » ، أو « جمع الفوائد » ، وقد يستطيع آخر أن يقرأ « جامع الأصول لأحاديث الرسول » مع « مجمع الزوائد » ، وكلما أكثر المسلم فقد أجاد على أن لا يُضيِّع جانباً آخر أو واجباً على حساب التوسع، فما خرج التوسع عن كونه مندوباً، مع وجود أهل الاختصاص .

هذا بالنسبة لنصوص السُنَّة .

أما بالنسبة لعلوم السُنَّة : فقد يكتفى المسلم بما ذكرناه، وقد يرغب بالمزيد، وكتب مصطلح الحديث أو كتب علوم السُنَّة والحديث كثيرة، منه الجديد المعاصر الذى ينافح عن السُنَّة ويدفع عنها شُبَه المرتدّين والكافرين الجدد ككتاب « السُنَّة » للدكتور السباعى، ومنها القديم، ومنها الجامع المنسق ككتاب الشيخ طاهر الجزائرى، أو كتاب القاسمى، ومنها المختصر اللطيف كمقدمة ابن الصلاح .

والحد الأدنى الذى نشير به من كل ما ذُكِر هو « رياض الصالحين » ، و« الأذكار »، وإلا لعامل لا يجد وقتاً، فتكفيه « الأربعون النووية » . فمن حصَّل « الرياض » و « الأذكار » فلا شك أنه حَصَّل قدراً جيداً من السُنَّة، ثم فليحاول أن يستزيد .

ونكتفى بهذه الإلمامة السريعة عن السُنَّة سرنا فيه على أساس لفت النظر إلى الحد الذى لا بد منه لمسلم يريد أن يأخذ حظه من كل أنواع الثقافة الإسلامية ليكون جديراً بكونه من حزب الله .

وتلك خطتنا التى سلكناها فى هذا الكتاب أن نلفت النظر إلى الشىء

الذى لا بد منه، وقد نطيل حيث لا بد من ذلك، ونختصر حيث يغنى الاختصار.

وكل ما نرجوه أن يصبح الشيء الذى لفتنا إليه النظر حقيقة وواقعاً، وكثير مما نلفت النظر إليه فى هذا الكتاب هو عمل كثير من المسلمين، إلا أنهم يلتفتون إليه وينسون غيره، لذلك كان عملنا عملية تذكير لأمثال هؤلاء بشيء قد يكونون غافلين عنه ولو إلى حد ما .

فإن نجحنا بهذا رجونا خيراً كثيراً، وإلا فربنا عَزَّ وجَلَّ أكرم فى كل حال من أن يضيع أجر مَن عمل له .

* * *

OBEIKAN.COM

٤- علم أصول الفقه

الكتاب والسُنَّة فيهما بيان كل شيء، ولكن هذا البيان قد لا يكون صريحاً أحياناً بل يُتوصل إليه بنوع من النظر والتأمل . فما هى القواعد التى تضبط الفهم للوصول إلى البيان فى مسألة ؟

يجيب على هذا علم أصول التفسير، أو كتب علوم القرآن للوصول إلى فهم سليم صحيح لكل قضايا الإنسان النظرية والعملية .

والكتاب والسُنَّة فَصَّلا للإنسان كل ما ينبغى أن يفعله الإنسان، فما هى القواعد التى تضبط وصول الإنسان إلى أن يعرف حكم الله فيما يفعله ؟

حكم الله يُعرف بواسطة الكتاب والسُنَّة، ولكن الكتاب فيه المجمَل، والمفصَّل، والعام، والخاص، والمحكم، والمتشابه، ما هى القواعد التى تحكم فى هذا الموضوع، وكتاب الله فيه الناسخ والمنسوخ، وفيه الأمر والنهى، وفيه الوعد والوعيد ؟

ما هى القواعد التى تبيِّن لنا علاقة هذه القضايا بالحكم ؟

والسُنَّة منها ذو السند الصحيح ومنها غير ذلك، ومنها المتعدد الروايات، ومنها كذلك المجمل والمفصَّل، والعام والخاص، والناسخ والمنسوخ، والآمر والناهى، فما هى قواعد استخراج الحكم من السُنَّة ؟

والقرآن متواتر النقل لفظاً ومعنى . بينما السُنَّة منها المتواتر لفظاً ومعنى، ومنها المتواتر معنى لا لفظاً، ومنها الظنى الورود، فماذا يترتب على ذلك ؟

وإذ أطلق القرآن، وخصت السُنَّة، أو أجمل القرآن، وبيَّنت السُنَّة، أو سكت القرآن، ونطقت السُنَّة، أو تعارض الكتاب والسُنَّة فى الظاهر، ما أحكام ذلك ؟

OBEIKAN.COM

وما لم يرد صريحاً فى الكتاب والسُنَّة وأجمع فيه المسلمون على شىء - ما حكم هذا الإجماع وما هى شروطه، ومتى يعتبر وما هى مكانة الإجماع بين أصول الشريعة ؟

وإذا اشترك شىء لم ينص عليه صراحة فى عِلَّة مع شىء قد نص عليه صراحة، هل يشترك الأول مع الثانى فى الحكم ؟ وإذا اشتركتا فكيف أثبتنا ذلك ؟

يصل هذا بنا إلى البحث عن القياس، وحكمه الشرعى، وإثباته، وحدوده، ومباحثه . وإذا كانت الشريعة قد أنزلت لحفظ مصالح الناس، فما هى المصلحة الشرعية وما حدودها ومَن يقدِّرها ؟ وما هى ضوابطها ؟

ما حكم فتوى الصحابى . ما حكم شرع مَن قبلنا إذا ورد فى شرعنا ؟ هل هناك مجال للاستحسان ؟ وإذا كان، فما هى ضوابط ذلك . هل للعُرف تأثير على الحكم ؟ وإذا كان له تأثير على بعض الأحكام فما هى قواعد ذلك ؟

وحكم الله هل يقدر كل إنسان على استخراجه ؟ وإذا كان الجواب : لا، فمن هو الجدير باستخراج حكم الله ؟

ما تأثير الأحوال الطارئة على التطبيق الشرعى ؟

هذه المسائل وعشرات مثلها إنما يجيب عليها علم أصول الفقه .

ولما كان هذا العلم صعباً ومسائله معقدة متشابكة، فإننا لا نطالب كل مسلم بدراسة كتبه، أما الرجل الذى يريد أن يحمل عبء الدعوة، فلا بد له من دراسة هذا العلم ليعرف مصادر الأمور ومواردها، ويضع كل شىء فى محله . فإنَّ هذا العلم « ميزان للفقه يضبط الفقيه ويمنعه من الخطأ فى الاستنباط » ، وبه يتبين الاستنباط الصحيح من الاستنباط الخاطىء، وكتب هذا العلم كثيرة، منها القديم، ومنها الجديد، ومن الجديد كتاب « أبى زهرة » عن أصول الفقه، أو كتاب « خلاّف » عنه على ملاحظات على ما فى الكتابين، فمثلاً مما نلاحظه على

الكتاب الأول أنه يعتبر اللحية فيه عادة وليست سُنَّة ينبغى إتباعها مع أنه قد ورد فيها أكثر من عشرين حديثاً فيها الآمر والناهى، والمبيِّن للحكمة، والمنكر على المخالف . والمذاهب الأربعة على تحريم حلقها.

ومما نلاحظه على الثانى أنه أحياناً يطبق قواعد علم أصول الفقه على القوانين الوضعية دون المساس بهذه القوانين أصلاً، أو دون النكير عليها، ولا شك أنَّ المؤلف لا يُحبِّذ القوانين الوضعية، ولكن عدم الإنكار عليها وتبيان حكمها غير مناسب فى كتاب إسلامى حتى لا يتعبر الناس أنَّ وجود هذه القوانين وضع عادى .

وعلى كل . . فقراءة أحد الكتابين مفيدة، وقراءة كتاب قديم على عالِم أجود، ومن الكتب القديمة فى هذا الشأن :

١- « الرسالة » للإمام الشافعى .

٢- « المستصفى » للغزالى، والغزالى شافعى .

٣- « أصول البزدوى »، والبزدوى من الحنفية .

٤- « أصول السرخسى » ، والسرخسى من الحنفية .

والكتب المدرسية فى هذا الشأن ذات شأن، فعلى مريد استكمال الثقافة الإسلامية أن يبذل جهداً، ولا يُطالَب بالكمال إلا أصحاب الاختصاص .

* * *

(٥ - ٦ - ٧)

علوم الإسلام النظرية والعملية

العقائد والأخلاق والفقه

الكتاب والسُنَّة تضمنا كل شيء كما رأينا، ولكن المسائل فيهما لم تكن مجموعة بشكل مواضيع لمسائل محددة، لذلك يجد الإنسان فى السورة الواحدة ما له علاقة بالعقائد، والأخلاق، والتشريع، والقواعد العامة، وكذلك فى السُنَّة، ولذلك أسبابه وحكمته، وفى باب « المعجزة القرآنية » من كتابنا « الأصول الثلاثة » بيان لهذا .

ومنذ عصر الرسول ﷺ اشتهر بعض الصحابة بإتقان بعض الجوانب، ثم توسع هذا، فاختص بعض علماء المسلمين واشتهروا بالبحث فى العقائد، واختص بعض العلماء بالأخلاق والتربية، واختص بعض العلماء بالفقه . وهؤلاء الاختصاصيون صارت لهم حلقاتهم وتلاميذهم، فنشأت مدارس فى العقيدة، ومدارس فى الأخلاق، ومدارس فى الفقه، وألَّفت كل مدرسة فى ذلك كتباً تعبر عن وجهة نظرها وآرائها الاجتهادية، ولما كان الفقه هو الجانب العملى الذى يحتاجه كل إنسان فقد كانت مدرسته أوسع هذه المدارس، وجذبت أكبر عدد من العلماء .

الاختصاصيون المهديون فى هذه العلوم صارت مهمتهم جمع مسائل كل علم إلى بعضها، وبحث عويصات المسائل المتعلقة بها، والجواب عن الأسئلة التى تتعلق بها، والرد على الشُبَه الثائرة ضدها، والدخول فى نقاش مع بعضهم حول مسائلها، فقرَّبوا البعيد، ووضَّحوا المشتبَه، وفصَّلوا المجمل، وبيَّنوا حدود المفصَّل،

وتوسعوا واختصروا، وكتبوا الكتب المطوَّلة والمختصرة . وذكروا فى المطوَّلة كل شيء، وذكروا فى المختصرة أمهات المسائل، ثم شرحوا ما اختصروه، وعلقوا عليه حواشى، وكتبوا لكل عصر ما يناسبه، فخرجت فى كل عصر مئات الكتب بهذه العلوم وغيرها تتناسب مع حاجة كل عصر، فكان تراثاً ضخماً، وعملاً عظيماً، مهما أخِذَت عليه مآخذ، فحسناته أكبر وأجل وأخطر .

وهناك شِبه إجماع من الأمة الإسلامية على اعتبار مجموعة من الأئمة مرضيين مقبولة مذاهبهم، سواء فى العقائد، أو الفقه، أو الأخلاق .

أمثال هؤلاء الأئمة أعطونا زبدة الأمور، فحقَّقوا، وفرَّعوا، وجمعوا حتى إنَّ الإنسان عندما يقرأ مذاهبهم، يأخذ صورة كاملة عن كليات المسائل وأمهاتها، وفروعها، وجزئياتها فى الجانب الذى عالجوه .

ومن ثَمَّ تُعتبر دراسة العقائد، والفقه والأخلاق على مذاهب هؤلاء الأئمة شيئاً أساسياً جداً فى ثقافة المسلم، لأنه لا تُعرف جزئيات مسائل العقائد والأحكام والأخلاق إلا عن هذا الطريق، كما لا تؤخذ صورة عملية لفهم الإسلام خلال العصور إلا بذلك، كما لا تحصل ملكة التحقيق العلمى إلا بهذا . لأن هؤلاء أشبعوا ما بحثوه درساً وتمحيصاً .

ولذلك قال الأستاذ البنا : « وأن تدرس رسالة فى أصول العقائد ورسالة فى فروع الفقه » .

وقال : « ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الشرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلة إمامه، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق مَن أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمى، إن كان من أهل العلم، حتى يبلغ درجة النظر » .

وقد جرت عادة علمائنا أن يكتبوا فى أى علم من العلوم متناً يجمعون فيه

أمهات مسائله، ثم يشرحونه ليجمعوا بين أمهات المسائل، وبعض فروعها المهمة، ثم يكتبون الحواشي عليه ليحيطوا بكل ما له علاقة به، ولهذه الطريقة ميزاتها رغم النقد الذى وجهه إليها المتجدودن، ومن ميزاتها أنها تعطى القارىء فى البداية زبدة العلم فى سطور قليلة، بحيث يدرك ماهيته ومباحثه، وأهم المسائل فيه، ثم بعد ذلك إن شاء أن يتوسع توسع وفى ذهنه صورة كاملة عن موضوع العلم . ومن أمثالهم : « مَن قرأ المتون حاز الفنون، ومَن قرأ الحواشي ما حوى شيء » وهذا للمبتدىء، لأن المبتدىء إذا غرق فى حاشية أنساه آخرها أولها مع عدم تمييزه بين الأهم والمهم، أما المبتدىء بالمتن فبسرعة يستطيع هضمه، والإحاطة به، وتذكر المسائل المهمة منه، حتى إذا استقر عنده ذلك، قرأ الشروح والحواشي، ومن ثَمَّ قالوا عن المنتهى : « مَن لم يقرأ الحواشي ما حوى شيء » . هذا فى النهاية، وذاك فى البداية .

وبعض العلماء خصوا كل علم من العلوم الثلاثة الآنفة الذكر بتأليف مستقل، وبعضهم جمع العلوم الثلاثة فى كتاب واحد . كالغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » إذ جمع فيه العقائد، والفقه، والأخلاق، وجرى فى العقائد على مذهب الأشاعرة، وفى الفقه على مذهب الشافعية، وفى الأخلاق على مذهب الجنيد والمحاسبى .

وفى الكتاب فصول تعتبر من أروع ما كتبه المسلمون، وقد قال العقاد فى الغزالى وهو مَن درسه دراسة طويلة : « إنه أعظم مفكرى العالَم على الإطلاق » .

ولم يسلم الكتاب من حملات عليه وعلى صاحبه خلال العصور ولكنه يبقى مدرسة جامعة .

والذى نقترحه على المسلم المعاصر ليأخذ حظه من هذه العلوم الثلاثة هو ما يلى :

١ - فى العقائد :

أن يدرس كتاب « العقائد » للإمام البنا، أو « كبرى اليقينيات » للدكتور البوطى، أو « الجواهر الكلامية » للجزائرى، أو « المعرفة » للشيخ عبد الكريم

الرفاعى، أو « أصول العقائد » لعبد الله عروانى، على أن يدرسه على مَن يثق بدينه وتقواه، وورعه، وعقيدته، وعلمه، فإنَّ العقائد مزلق قدم زَلَّ فيه كثير .

وإذا قُبِلَ الاختلاف فى الفقه، فإنَّ الاختلاف فى العقائد مردود، ففى الفقه حق وخطأ، أما فى العقيدة فحق وضلال .

وما دام الأمر كذلك فينبغى أن يحتاط .

ويتساءل متسائل نتيجة لذلك : فلماذا ندرس العقائد ما دامت المسألة كذلك ؟ ونقول : إنَّ المسلمين اختلفوا . وضَلَّ ناس نتيجة لذلك . وذلك مصداق قوله عليه السلام : « . . . وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » (١) . فلا بد من دراسة عقيدة أهل السُنَّة والجماعة كى لا يسير إنسان على مسار فرقة ضالة .

وصحيح أنَّ اسم أهل السُنَّة والجماعة تتنازعه الفرق الإسلامية، ولكن مما لا شك فيه أنَّ الحق ما خرج عن جمهرة المسلمين، وجمهرة المسلمين على عقيدة السَلَف، وهى وحدها التى يمكن أن يجتمع الناس عليها، وفى كتاب « الأصول الثلاثة » فى دراساتنا ما يغنى لمن شاء أن يكتفى .

٢- فى الأخلاق :

إنَّ مظنة علم الأخلاق هو كتب التصوف الإسلامى، ككتاب « الرعاية »، و « رسالة المسترشدين »، و « الإحياء »، و « الرسالة القشيرية »، وأمثال ذلك، غير أنَّ التصوف وكتبه - أو قسماً منها على الأقل - توجه عليه حملات شديدة من جهات متعددة من المسلمين، ويبدو أنَّ التصوف فيما آل إليه أصبح الآن مزيجاً مما ينبغى أخذه، وما يجب تركه، إذ الإيحاءات التى يأخذها دارس كتبه لا تناسب الحركة التى يجب أن يتحركها المسلمون .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى واللفظ له، قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

ولهذا فإننا لا نستطيع أن ندل على كتاب معيَّن قديم يمكن أن يأخذه المسلم فى هذا الشأن على أنه معيار كامل للأخلاق الأساسية الإسلامية ؟

وقد حاولنا فى القسم الثانى من هذا الكتاب « جند الله أخلاقاً » أن ندل المسلم على أمهات الأخلاق الأساسية فى الإسلام بما يتناسب مع طبيعة عصرنا الذى استشرت فيه الردّة، وإننا لنأمل أن يسد هذا الكتاب ثغرة طيبة فى هذا المجال .

على أننا بعد ذلك ندعو المسلم ونخصه بعد أن يستوعب العقيدة ويعرف أمهات الأخلاق الأساسية ويتحقق بها، ويعرف الفقه، وبعد أن يكون قد أخذ حظه من الكتاب والسُنَّة، أن يقرأ ما شاء من كتب الأخلاق الإسلامية، فيكثر النظر فى كتاب « الإحياء » ومختصره « موعظة المؤمنين » ، أو فى كتاب « الرعاية » للمحاسبى وأمثال ذلك، فإنَّ هناك دقائق لفتت إليها مثل هذه الكتب لا يعثر عليها الإنسان فى غيرها، والمؤمن كالنحلة يعرف كيف وماذا يشتار . ولابن تيمية فى مجموعة فتاواه حوالى مجلدين فى الأخلاق والتصوف، وأكثر كتب ابن القيم لا تخلو من توجيه أخلاقى، وهاتان المدرستان ـ مدرسة الغزالى ومدرسة ابن تيمية ـ هما أهم مدرستين أخلاقيتين فى التاريخ الإسلامى .

٣- فى الفقه :

إننا نقترح على المسلم أن يقرأ فى هذا :

١- كتاباً فى تاريخ التشريع الإسلامى، ككتاب الخضرى، أو كتاب أبى زهرة، عن المذاهب الإسلامية .

٢- أن يقرأ متناً فى الفقه مع شرحه على مذهب من المذاهب المعتمدة : الحنفى، الشافعى، المالكى، الحنبلى، ومثال ذلك « متن القدورى » فى مذهب الحنفية وشرحه للميدانى المسمى « اللباب فى شرح الكتاب » . أو ما يشبهه فى مذهب الحنفية وغيره، وكتاب « تحفة الفقهاء » للسمرقندى مع تخريج أحاديثه من أجود ما يُقرأ .

غير أنَّ دراسة الفقه الإسلامى لا بد من حديث طويل عنها وذلك أنه أخطأ فيها أربعة : متعصب لا يرى الحق إلا فى مذهبه، وكاره للفقه من أصله، ورافض دراسة الكتاب والسُنَّة من أجل الفقه، ورافض دراسة الفقه بحجة الكتاب والسُنَّة.

إنَّ بعض الناس فرَّطوا فى دراسة الكتاب والسُنَّة من أجل الفقه، وبعض الناس طالبوا بالعودة إلى الكتاب والسُنَّة وترك الفقه، وكِلاَ ذلك تفريط، فلا تعارض بين دراسة الكتاب والسُنَّة ودراسة علوم الإسلام الأخرى إذا أخذت عن أهلها، فعلى قدر علم الإنسان بالكتاب والسُنَّة، مع تقواه وصلاحه وعدالته تكون جودة فهمه للكتاب والسُنَّة .

ولا شك أنَّ أجود فهم للكتاب والسُنَّة هو فهم الأئمة الأعلام الذين أجمعت الأمة على توثيقهم، ولا يمكن أن يستغنى عنهم إنسان أبداً فى فهم الكتاب والسُنَّة، بل أى إنسان فى عصرنا لا بد أن يكون عالة على فهومهم، وهذا شىء لا ينكره إلا جاهل ما عرف شيئاً من واقعات الشريعة .

وإذن فعندما ندرس مذهب إمام فى الفقه، فإنما ندرس فى الواقع فهم إمام ومدرسة للكتاب والسُنَّة، فأى حَرَج فى مثل هذه الدراسة . والله تعالى يقول : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ (١) [النحل:٤٣] .

ونضيف حتى لا يبقى مجال للبس :

إنَّ الناس الذين يدعون إلى ترك كل ما قاله علماء المسلمين خلال العصور يهدمون ثقافة كاملة لأمة تعبت عليها ملايين العقول . وأنضجتها خبرة العصور، إنَّ هؤلاء الذين يشككون فى قيمة هذا التراث لا يعدلون أدنى واحد من أعلامه، أفنترك هذا التراث الضخم الذى أوجده هؤلاء العلماء الضخام لنبدأ فى إيجاد تراث تشريعى جديد ؟

---

(١) أهل الذكر: أهل العلم.

أنَّ نحقق فلا حَرَج، أما أن نشكك فى قيمة تحقيق الآخرين من أهل التحقيق، فذلك الضلال بعينه الذى يدل على سوء ظن بسَلَف هذه الأمة، وهل يبقى لإنسان دين وهو يحتقر الصالحين من علماء هذه الأمة ويرى نفسه خيراً منهم ؟ وهل من المعقول أن يطعن فى علوم أبى حنيفة وارث علوم ابن مسعود ؟ وتحقيق الشافعى وارث علوم السَلَف كلها، وتحقيق مالك وارث علوم الصحابة، وتحقيق أحمد عَلَم أعلام السُنَّة بحجة من الحجج وأى حُجَّة ؟

حُجَّة أنَّ كل واحد من هؤلاء فاتته أحاديث ـ وعلى فرض حدوث هذا ـ فهل يدَّعى أحد من الناس أنه أحاط علما بالأحاديث كلها، وبالآثار كلها ؟ وعلى فرض أنه فاتهم أحاديث، ألم تكن عندهم أحاديث بنوا عليها اجتهاداتهم ؟ ومَن ادعى أنَّ شيئاً مما ذهبوا إليه لا تسنده الآثار فقد كذب على الله ورسوله، وأثبت جهله بكتب أدلتهم، فمَن قرأ كتب أدلتهم المفصَّلة عرف أنَّ كلاً منهم بنى مذهبه على صخر لا يتزلزل من الكتاب والسُنَّة .

ومَن قرأ أمثال كتاب « معانى الآثار » و « كتاب الزيلعى » و « فتح القدير » فى مذهب الحنفية عرف هذا .

ومَن قرأ أمثال كتاب « المجموع » للنووى عرف هذا .

وهكذا فى كل مذهب من المذاهب .

إنَّ وجود هذه المذاهب الفقهية أمر فطرى، فالناس يتفاوتون فى فهم الكتاب والسُنَّة، كما أنَّ أكثر الناس لا يستطيعون أن يعرفوا حكم الله فى كل مسائل الحياة من الكتاب والسُنَّة وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، كما أنَّ نصوص الكتاب والسُنَّة ليست كلها بحيث يستطيع أى إنسان أن يفهمها، كما أنَّ أى إنسان ليس عنده الوقت الكافى للتفكير والبحث فى كل النصوص لاستخراج الحكم، وما كل الناس يملك الاستنباط، وما كل الناس عندهم إحاطة بكل النصوص، ولرُبَّ نص منسوخ، ولرُبَّ نص مقيَّد، ولرُبَّ نص مجمل .

كل هذا أدَّى بشكل عادى إلى وجود طبقة من علماء الأمة الإسلامية تقوم بهذا كله هم المجتهدون، وأدى إلى وجود إجتهاد، وأدى إلى وجود فقه، وأدى إلى وجود فقهاء .

والمجتهد مهمته أن يستنبط أحكام الله من الكتاب والسُنَّة للحوادث المستجَدة ويبينها للناس بحيث لا تبقى قضية من قضايا الوجود إلا ويُعرف فيها حكم الله،.إذ أنَّ الكتاب والسُنَّة ما تركا قضية من قضايا الحياة إلا وبيَّنا حكم الله فيها، فحكم الله فى كل القضايا سابقة ولاحقة، وفى كل مكان ولكل مكان وجود، ومهمة المجتهد الكشف عنه وتبيانه .

فالاجتهاد إذن هو محاولة المجتهد الوصول إلى حكم الله .

فالمسلمون قسمان :

قسم لا يستطيع أن يتعرف على حكم الله مباشرة من الكتاب والسُنَّة، وإن تعرف على بعض فقد لا يستطيع الكل، وقسم يستطيع، وقد أوجب الله على الأول أن يسأل ويأخذ عن الثانى، وأوجب على الثانى أن يبيِّن : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل:٤٣] ، ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ [النساء:٨٣] ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء:٥٩] فسَّر ابن عباس « أولى الأمر » بالعلماء والفقهاء . وهى وإن كانت تشمل الأمراء كذلك، لكن الأمراء فى النظام الإسلامى من الفقهاء، كما قال عمر رضى الله عنه: « تفقَّهوا قبل أن تسودوا »(١)، ومن شروط أمير المؤمنين أن يكون مجتهدا .

وقال أيضاً جل جلاله :

﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ** ﴾

---

(١) قبل أن تصبحوا حكاماً.

[آل عمران: ١٨٧] ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤] .

وقال عليه السلام : « مَن سُئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (١) .

ولكن مَن هو المجتهد ؟ قال فى مختصر شرح السُنَّة : والمجتهد مَن جمع خمسة علوم : علم كتاب الله، وعلم سُنَّة رسول الله ﷺ ، وأقاويل علماء السَلَف من إجماعهم واختلافهم، وعلم اللغة، وعلم القياس، وهو طريق استنباط الحكم من الكتاب والسُنَّة إذا لم يجد صريحاً فى نص كتاب أو سُنَّة أو إجماع .

فيجب أن يعلم من علم الكتاب الناسخ والمنسوخ، المجمل (٢) والمفسر (٣)، والخاص (٤) والعام (٥) والمحكم (٦) والمتشابه (٧)، والكراهة والتحريم والإباحة، والندب .

ويعرف من السُنَّة هذه الأشياء، ويعرف منها الصحيح والضعيف، والمسند والمرسل، ويعرف ترتيب السُنَّة على الكتاب، وبالعكس، حتى إذا وجد حديثاً لا يوافق ظاهره الكتاب اهتدى إلى وجه محمله، فإنَّ السُنَّة بيان للكتاب

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة، قال الترمذى: هذا حديث حسن.

(٢) المجمل: وهو ما خفى المراد منه لتعدد المعانى التى يُستعمل فيها.

(٣) المفسر: وهو اللفظ الذى ظهرت دلالته على معناه الوضعى مع احتمال النسخ وحده.

(٤) الخاص: كل لفظ وُضِعَ بمعنى واحد على الانفراد.

(٥) العام: كل لفظ ينتظم جمعاً سواء أكان باللفظ أو بالمعنى.

(٦) المحكم: وهو اللفظ الذى له دلالة على معناه الوضعى بدون احتمال شئ.

(٧) المتشابه: ما خفى المراد منه حيث لا ترجى معرفته فى الدنيا لأحد، أو لا ترجى إلا للراسخين فى العلم.

OBEIKAN.COM

فلا تخالفه، وإنما تجب معرفة ما ورد منها من أحكام الشرع دون ما عداها من القصص والأخبار والمواعظ .

وكذا يجب أن يعرف من علم اللغة ما أتى فى الكتاب والسُنَّة من أمور الأحكام دون الإحاطة بجميع لغات العرب .

ويعرف أقاويل الصحابة والتابعين فى الأحكام ومعظم فتاوى فقهاء الأمة، حتى لا يقع حكمه مخالفاً لأقوالهم فيأمن فيه خرق الإجماع، فإذا عرف كل نوع من هذه الأنواع فهو مجتهد، وإذا لم يعرفها فسبيله التقليد . (انتهى) ـ أى تقليد مجتهد [١] .

وما اجتهد فيه المجتهدون نوعان :

نوع أجمعوا فيه على حكم الله، ونوع اختلفوا فى حكم الله فيه، فما أجمعوا عليه فهو الحق المحض الذى لا يجوز لمسلم خلافه : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾ [النساء:١١٥]، « لا تجتمع أمتى على خطأ » [٢]، « عليكم بالسواد الأعظم » [٣] .

وما اختلفوا فيه كان سعة يحق لكل مسلم أن يُقلِّد مَن شاء منهم فى ما شاء [٤]، يقول الشافعى رحمه الله : « أجمع العلماء أنَّ الله لا يعذب فيما اختلف فيه العلماء » على شرط ألا يخرج عن أقوالهم ما دام قد توفرت بهم صفة الاجتهاد، وتلك من رحمة الله بهذه الأمة، والذين يطالبون الناس بأن يقوموا

---

(١) انظر: سبل السلام.

(٢) رواه أحمد فى مسنده والطبرانى فى « الكبير » وابن أبى خيثمة فى تاريخه عن أبى نضرة الغفارى رفعه، وكذا عند الترمذى وابن ماجه عن أنس رفعه بلفظ مقارب.

(٣) هو قطعة من الحديث السابق من رواية الترمذى وابن منده.

(٤) لكن على أن لا يلفق فى المسائل ذات الموضوع الواحد وأن لا يكون الغرض تتبع الرُخَص.

بعملية مقارنة بين أقوال المجتهدين، واختيار القول صاحب الدليل الأقوى، ليسوا عمليين ولا منطقيين، إذ كم من الناس عندهم أهلية فهم الدليل ومناقشة الدليل الأقوى، وكم من الزمن يحتاجه الإنسان كى يتفقه فى كل المذاهب ويعرف دليل كل، وكم من الناس يتوفر لهم مثل هذا الوقت .

ولم يختلف المجتهدون أبداً فى حكم نص قطعى الثبوت قطعى الدلالة، وإنما كان اختلافهم كله فيما نصه قطعى الثبوت ظتى الدلالة، أو ظنى الثبوت ظنى الدلالة، أو ظنى الثبوت قطعى الدلالة، ولذلك لا تجدهم قد اختلفوا فى شىء من أصول العقيدة فإنما كان اختلافهم فى الفروع الفقهية أو فى قضايا نظرية من العقيدة إنما لا تمس جوهرها .

وقد غلط ناس تصوَّروا أنَّ بالإمكان اجتماع الأمة على رأى واحد فيما اختلف فيه المجتهدون، كما غلط ناس تصوَّروا أنَّ بعض المجتهدين قالوا قولاً عن غير دليل أو لهوى فى أنفسهم . ونحن لا ننكرر أنَّ الحق فيما اختلفوا فيه واحد بحيث يكون أحدهم مصيباً، ولكن ننكر دعوى مَن يقول إنهم أتوا بالحكم من عند أنفسهم متبعين أهواءهم، وأوضح مثال يتبين فيه أن لكل دليلاً فيما ذهب إليه قضية رفع الأيدى فى الصلاة أثناء الانتقال، فقد رواها سبعون صحابياً، ومع ذلك لا يقول بها بعض المجتهدين، وقد جرى نقاش بين إمامين مجتهدين حول هذا الموضوع، منه يتبين موضوع الخلاف بين الأئمة، وأنَّ لكل دليله .

قال الأوزاعى لأبى حنيفة : لماذا لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال أبو حنيفة : لأنه لم يصح فيه شىء عن النبى ﷺ ، فقال الأوزاعى : كيف وقد حدَّثنى الزهرى عن سالم عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال أبو حنيفة : حدَّثنى حماد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن عبد الله بن مسعود : أنَّ رسول الله ﷺ كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ولا يعود إلى شىء من ذلك . فقال الأوزاعى :

أحدثك عن الزهرى عن سالم عن أبى عمر وتقول : حدثنا حماد عن إبراهيم ؟ فقال أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهرى، وكان إبراهيم أفقه من سالم، وعلقمة ليس بدون عمر، وإن كان لابن عمر صحبة، فالأسود له فضل كبير .

وفى رواية أخرى : إبراهيم أفقه من سالم، ولولا فضل الصحبة لقلت إنَّ علقمة أفقه من عبد الله بن عمر، وعبد الله ـ أى ابن مسعود ـ هو عبد الله، فسكت الأوزاعى .

وينتج عن هذا أنك تجد للقضية الواحدة مما اختلف فيه المجتهدون فيها أكثر من قول، ولكل قول دليل، فمن قائل بالُحرمة، وآخر بالكراهية، وآخر بالإباحة، أو قائل بالفرضية، وآخر بالوجوب، وآخر بالسُنَّة، وأحياناً يتراوح الحكم ما بين الفرض عند أحدهم إلى المكروه عند الآخر، كقراءة الفاتحة وراء الإمام . . وهذا قليل .

وأجود ما يقال أمام هذا : مَن كان من الناس عنده إمكانية معرفة الدليل حقاً لا دعوى، وتبين له الدليل الأقوى فيما اختلفوا فيه، لا يسعه أن يكون على غيره .

أما غير هذا من عامة الناس فلهم أن يأخذوا أى حكم عرفوه لأى مجتهد فقيه، وليس لأحد أن ينكر عليه فيما ذهب إليه من تقليد مجتهد، وهذا معنى قولهم : « مذهب العامى مذهب مفتيه » .

غير أنَّ بعضهم علَّل اختلاف الفقهاء فى القضية الواحدة بحكمة الشارع، حيث جعل الأدلة من المرونة بحيث تعطى أحكاماً فى بعض المسائل تتراوح ما بين الشدة والسهولة رحمة بالأمة، وعلى هذا فالقول الأرفق بالأمة يكون من باب الرُخصة، والقول الأشد يكون من باب العزيمة، وعلى هذا فالمسلمون بالخيار بين أن يأخذوا بالأدنى أو بالأعلى، وعندئذ تدور المسألة بين حد أدنى من التقوى وحد أعلى، فعلى قدر تقوى الإنسان يكون أخذه بالعزيمة : ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ**

﴿القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٨] ، « كنا ندع ما لا بأس به مخافة مما به بأس »(١) .

وفى الأثر عن ابن مسعود : « كانوا يدعون تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام »، « لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس »(٢) ، « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »(٣) ، « الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشُبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه »(٤) .

فما دام الإنسان على فتوى مذهب إمام مجتهد، فهو فى إسلام ولا يحق لأحد أن ينكر عليه، إذ من شروط إنكار المنكر أن يكون مجمَعاً على أنه منكر . . نعم نصيحة بلين، دعوة بلطف، إقامة حُجَّة بأدب، تبيان أدلة ما يعتقد أنه الصواب، مناقشة بالمعروف لإظهار الحق، كل ذلك فى حدود المحبة والألفة وأدب الأخوة فذلك طيب لا غبار عليه .

* * *

ولكن اختلاف الفقهاء لا يمنع من وحدة القانون الإسلامى على مستوى الأمة الإسلامية، أو على مستوى قطر من أقطارها، إذ أنَّ لأمير المؤمنين أو نائبه أن يختار قولاً من أقوال المجتهدين ويفرضه على الأمة من أجل وحدة القانون فيها، وذلك ناتج عن كون الأمة فوَّضت إليه أمر حكمها، وتكون أقوال المجتهدين فى هذه الحالة بمثابة فهوم يختار منها ما هو أقرب لتحقيق المصلحة بالحق .

---

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن عطية السعدى.

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن عطية السعدى.

(٣) رواه أبو داود الطيالسى وأحمد وأبو يعلى فى مسانيدهم والدارمى والترمذى والنسائى وآخرون عن الحسن بن على، وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٤) رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما.

ولكن من الخطأ الكبير فى هذه المرحلة للدعوة الإسلامية فى أى قُطر أى قبل أن تقوم دولة الإسلام فيه أن تتبنى كل جماعة إسلامية رأياً وتفرضه على أتباعها، ولا تقبل إلا مَن التزم به، إذ بذلك تنقلب المعركة من معركة بين الإسلام وغيره، إلى معركة خلافية بين المسلمين أنفسهم، وبهذا يتفرق صف حزب الله، إذ كل مجموعة تلتزم برأى أو آراء، وبالتالى يكون كل مسلم متقوقعاً على نفسه بآراء وأفكار هى من الإسلام وليست كل الإسلام، مما يؤدى إلى ضعف لا يكون معه وصول إلى هدف .

وبإدراكنا لطبيعة عمل المجتهد، وأنها إظهار حكم الله، والتعرف إليه، والتعريف به، ندرك أنَّ حكم الله موجود فى الكتاب والسُنَّة، ولكن قد لا يعرفه أى إنسان، فيأتى المجتهد ويكشف عنه، أما أن يأتى المجتهد برأى من عنده فهذا لا يجوز، ولا يكون من مسلم تقى، إذ لا يكون المسلم مسلماً إلا باعترافه أنَّ الحاكمية لله وحده : ﴿ **إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ [الأنعام:٥٧] ، ﴿ **أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ [الأعراف:٥٤] .

وبهذا نكون قد أدركنا كيف أنَّ القرآن كان تبياناً لكل شىء، وكيف أنَّ الإسلام قد كمل .

﴿ **اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ ديناً** ﴾ [المائدة:٣] ، ﴿ **وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**(١) **وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف:١١١] ، ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل:٨٩] .

فما لم يعرف حكمه بالكتاب يُعرف بالسُنَّة، وما لم يعرف بالسُنَّة يُعرف بالإجماع، وما لم يُعرف بهذه الثلاثة يعرفه المجتهدون بواسطة القياس أو الاستحسان أو الاستصحاب أو . . . . وعلى هذا فكل ما تراه من واقع إنسانى

---

(١) تصديق الذى بين يديه : أى ما قبله من الكتب .

قديماً وحديثاً ويمكن أن يكون فى أى أرض وفى أى زمان له فى دين الله حكم، من عقيدة، لعبادة، لسياسة، لاجتماع، لاقتصاد، لسلم، لحرب، لعلم، لتشريع، لقانون . . عرفه مَن عرفه وجهله من جهله .

* * *

. ويقول ناس بعد كل ما تقدم : لماذا لا نعود إلى الكتاب والسُنَّة مباشرة ؟؟؟ ونقول : لو عدنا من جديد لوصلنا بعد مئات السنين إلى بعض ما وصل إليه السابقون .

ونقول كذلك : وهل هذه الاجتهادات خارجة عن الكتاب والسُنَّة حتى نلغيها ؟

ونقول كذلك : إذا أجاز الرسول ﷺ الاجتهاد، وجعل للمجتهد المصيب أجرين، وللمخطىء أجراً، فكيف ننكر نتيجة مقدمة أقرها رسول الله ﷺ ولم ينكر نتائجها، فما أنكر الرسول ﷺ على الصحابة الذين قال لهم : « لا يُصلِّيَنَّ أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة »(١) لا على مَن صلَّى قبل قريظة للوقت، ولا على مَن صلَّى فى قريظة للأمر .

نحن لا نرغب عن الكتاب والسُنَّة إلى شيءٍ آخر أبداً، لأنَّ ذلك كفر، ولكنَّا نرغب إلى مَن هو أعلم بالكتاب والسُنَّة، ولا شك أنَّ أبا حنيفة والشافعى ومالكاً وأحمد أعلم بالكتاب والسُنَّة، ودع عنك ما يقوله الجُهَّال عن أبى حنيفة، فمَن قرأ كتاب « معانى الآثار » للطحاوى الحنفى، أو كتاب « نصب الراية » عرف كيف أنَّ مذهب أبى حنيفة يقوم على أساس صخرى من الكتاب والسُنَّة .

ونقول أخيراً لهؤلاء : لقد جمع ابن حزم ألف صفحة فى الوضوء فقط من الأحاديث، فهل يستطيع كل إنسان أن يدرس هذا، وأن يدخل بحار الكتاب

---

(١) رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر، وفى رواية مسلم: « الظهر » عوضاً عن العصر.

OBEIKAN.COM

والسُنَّة ليستخرج ما يريد من الأحكام وفيهما المنسوخ، والمشكل [1]، والمتشابه، والمجمل، والمتعارض فى الظاهر ؟

ثم كم يحتاج الإنسان من الزمن لمعرفة كافة المسائل ؟

بينما يستطيع الإنسان خلال أيام أن يدرس متن فقه على مذهب إمام، فيعرف أمهات المسائل فى كل باب مما يلزمه بشكل عملى : من الصلاة، إلى الحج، إلى البيوع، إلى الزواج، إلى الإرث، إلى الوديعة . . . إلى غيرها .

ولا يعنى ما تقدم أننا نمنع إنساناً من التحقيق وهو يملك أهليته، فهذا ليس لنا ولا لغيرنا، بل إننا نود من كل قلوبنا لو أصبح كل المسلمين محققين يملكون أدوات التحقيق الكاملة، ولكن الذى نخشاه دائماً أن نطعن فى الآخرين قيل أن نعرف أدلتهم، وأن ننقض بناءً لنقيم خراباً، كما نخشى أن يتصدى للتحقيق مَن ليس أهلاً له، فيتكلم بغير علم، وعلى غير أساس .

ولا ننسى مع هذا كله قضية هامة هى :

أنَّ الكتب التى بين أيدينا الآن ليست كل ما ألَّفة علماء المسلمين، فنحن نعرف كارثة بغداد والأندلس ومكتباتهما، إنَّ هناك أحاديث نحكم بضعفها الآن لأنَّ الكتب التى بين أيدينا ترويها عن طريق ضعيف، بينما لو كانت كتب أخرى موجودة لاختلف الوضع، وأكبر مثال على ذلك أنَّ هناك أحاديث أسانيدها ضعيفة رواها الحاكم وغيره، لم تُعرف هذه الأحاديث أنها صحيحة إلا بعد أن عُثِرَ على كتاب « صحيح ابن خزيمة » حيث ساق لها أسانيد صحيحة، هذه النقطة الهامة تجعلنا لا نتسرع برد حكم إمام مجتهد بحُجَّة أنَّ النصوص الصحيحة التى بين أيدينا تخالفه، إذ أنَّ هذا الإمام أقرب عهدا بالرسول ﷺ وأصحابه، وأعرف بما عليه الناس من عمل تلقنوه عن السَلَف الصالح رضوان الله عليهم .

---

(١) المشكل : هو ما خفى مدلوله لتعدد المعانى التى يُستعمل فيها .

وقد يقول قائل : إنَّ وحدة الأمة الإسلامية لا تكون مع هذه المذهبية ونقول : لا يمكن أن تجتمع الأمة الإسلامية على فهم واحد لكل نصوص الكتاب والسُنَّة، وهذا شيء منعقد عليه إجماع الصحابة والأمة، فإذا كان نص شعرى يختلف الناس فى فهمه على فهوم شتَّى، أمن الممكن أن يجتمع الناس على فهم واحد للكتاب والسُنَّة ؟ هذا مع ملاحظة أنَّ كثيراً من نصوص السُنَّة فى قبول رواتها أخذ ورَد .

ولكن هل تؤثر المذهبية على وحدة الأمة الإسلامية ؟

لقد كان بين الصحابة اختلاف فرعى، وكانوا أمة واحدة .

والحقيقة أنَّ الذين يفرون من أربعة مذاهب يريدون أن يجعلوا الأمة ملايين المذاهب .

والواقع أنَّ المذاهب الأربعة التى استقرت عليها الأمة جمعت عشرات المذاهب الأخرى، فهى تمثل أقصى صورة من صور التجميع والتوحيد .

ثم هى فيما بينها متفقة على حوالى سبعين بالمئة من المسائل، وكثير من المسائل التى جرى الاختلاف فيها كان الخلاف فى : هل هى سُنَّة أو فريضة أو بينهما ؟ . . وهكذا .

إنَّ الذين لا يدرسون الفقة الإسلامى وليسوا أهلاً للاجتهاد، سيجدون أنفسهم على الشكل التالى : سيسألون عن كثير من المسائل لا يعرفون حكمها وليس جوابها صريحاً فى الكتاب والسُنَّة، فإما أن يسكتوا، أو يبقوا على جهل .

بينما كان فى مقدورهم لو تعلموا الرجوع إلى كتب الفقه أن يروا الجواب بكل بساطة محققاً مدعماً بالحجج فى كل مذهب من المذاهب .

إننا ضد التعصب، ولكننا كذلك ضد رفض ما قاله العلماء، وضد سبهم وشتمهم وإهانتهم، والله تعالى علَّمنا أن نقول : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ** ﴾[الحشر : ١٠].

إن الناس قسمان : متعلم وعامى . .

العامى يستطيع أن يسأل أى عالِم ثبت يجده ويأخذ منه بفتواه ولا حَرَج .

أما المتعلم فالطريق النظرى له :

١- أن يقرأ متناً من متون الفقه على مذهب من المذاهب يختاره .

٢- ثم يتوسع فى فهم المذهب وفى معرفة دليله .

حتى إذا أحاط بما يلزم للعمل والفتوى، وصار قادراً على مراجعة المسائل، حاول أن يتعرف ويحقق ويدقق، فإذا انشرح صدره لترجيح فلا حَرَج عليه دون أن يدَّعى، أو يتهم، أو ينتقص، أو يبغض، أو يحقد، أو يحتد .

يقول الأستاذ الشهيد حسن البنا رحمة الله عليه :

« والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سبباً للتفرق فى الدين، ولا يؤدى إلى خصومة أو بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجر ذلك إلى المراء والتعصب » .

فالمراحل المنطقية لهذه القضية بالنسبة للمسلم هى :

١- أن يقرأ كتاباً معتَمداً فى هذه العلوم ليعرف كيف يتصرف على علم، ولأن يتصرف على رأى إمام مجتهد فى هذه المرحلة خير من أن يتصرف على هوى وجهل .

٢- أن يتعرف إلى أدلة المسائل التى تعلَّمها ولو بشكل مختصر أثناء دراسة الكتاب أو بعده .

٣- أن يدرس ويحقق ويطلِّع ويقارن إذا أصبحت لديه أهلية لذلك وإن كان فى هذه الحالة لن يأتى كذلك بجديد، لأنَّ التحقيق والمقارنة لم يفوتا علماء المسلمين خلال العصور، فمَن راجعَ كتب التفسير والحديث والشروح المطوَّلة، رأى التحقيق الذى ما بعده تحقيق، والمقارنة التى ما بعدها مقارنة .

OBEIKAN.COM

إنَّ عملية البدء من جديد فكرة بدائية جداً، أما إبراز القديم بتأليف جديد، أو عرضه بأسلوب جديد فهذا الجيد الذى نحتاجه، إلا فى مسألة حادثة فلا بد من بحث جديد .

وإنَّ الإنسان ليعجب ممن يتسرعون فى النفى والإثبات قبل أن يعرفوا ما قاله العلماء، فمن قائل فى القضية الفلانية : الحنفية لا حُجَّة لهم أبداً، والشافعية أهملوا النصوص الصحيحة، فكيف يصدر هؤلاء أمثال هذه الأحكام ؟ هل أحاطوا بالموضوع وقرأوا كتب هؤلاء الذين ينفون عنهم الدليل ؟

وسنعرض هنا مسألتين يتصور بعض الناس أنَّ الأدلة الصحيحة ضد مذهب الحنفية فيهما لنرى كيف أنَّ للحنفية أدلتهم الصحيحة الثابتة لنستل بمثل هذا عملية التشكيك التى يقوم بها ناس لا يتقون الله فى سَلَف هذه الأمة ولا فى تراثها الفقهى العظيم، وتمثيلنا بفقه الحنفية لأنه أكثر ما ينصب عليه الهجوم .

المسألة الأولى « قضية رفع الأيدى فى الصلاة عند الركوع والرفع منه » :

فهذه قضية يتصوَّر بعض الناس أنَّ الحنفية على غير ما دليل قطعاً، والحقيقة أنَّ أدلة الحنفية فى هذا الموضوع كثيرة، وسننقل بعضها هنا من كتاب « الفتح الرحمانى » بشىء من الحذف ولم ننقل إلا جزءاً بسيطاً من أدلته يقول :

منها : حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ألا أصلِّى بكم صلاة رسول الله ﷺ ؟ فصلَّى ولم يرفع يديه إلا مرة ـ أخرجه الترمذى وحسَّنه وأخرجه محمد فى موطئه والطحاوى وأبو داود والنسائى والدار قطنى والبيهقى وابن أبى شيبة وصححه ابن حزم فى « المحلى » ، على أنَّ الحديث صححه ابن القطان والدار قطنى وأحمد بن حنبل، إلا أنهم أنكروا فيه زيادة : « ثم لم يعد » .

وقد حقق الزيلعى هذه الزيادة، واستدل الإمام أبو حنيفة فى المناظرة مع الأوزاعى بهذا السند : حدَّثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود

أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم كان يرفع يديه عند افتتاح الصلاة ولا يعود لشيء من ذلك . وليس فيه مَن يتكلم فيه .

وأخرج ابن عدى والدار قطنى والبيهقى من طريق حماد عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : صليتُ مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وأبى بكر وعمر، فلم يرفعوا أيديهم إلا عند استفتاح الصلاة .

ومنها : حديث البراء بن عازب رضى الله عنه أخرجه الطحاوى بعدة طُرق بلفظ : كان النبى ﷺ إذا كَبَّر لافتتاح الصلاة رفع يديه حتى تكون إبهاماه قريباً من شحمتى أذنيه ثم لا يعود .

وأخرجه ابن أبى شيبة وأخرجه أبو داود وتكلم فيها فى « تنسيق النظام » .

ومنها : حديث علىّ رضى الله عنه مرفوعاً وصوَّب الدارقطنى وغيره وقفه . وسيأتى فى الآثار .

ومنها : حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه كان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا دخل الصلاة رفع يديه مداً ـ أخرجه أبو داود فى باب « مَن لم يذكر الرفع عند الركوع »، وسكت عليه، قال المنذرى : وأخرجه الترمذى والنسائى .

قلت : وسيأتى فى الآثار أنَّ مذهب أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يرفع يديه حين يُكبِّر لفتح الصلاة، ومنها حديث ابن عباس، وروى عن ابن عمر أيضاً رضى الله تعالى عنهم قال النبى ﷺ : « لا تُرفع الأيدى إلا فى سبع مواطن » . . . الحديث ـ أخرجه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مرفوعاً وابن شيبة موقوفاً، وذكره البخارى فى جزء رفع اليدين تعليقاً عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما مرفوعاً، وأخرجه البراز عنهما مرفوعاً وموقوفاً، وكذا البيهقى والحاكم عنهما مرفوعاً . كذا فى الزيلعى .

ومنها : حديث جابرة بن سمرة رضى الله تعالى عنه : قال النبى ﷺ : « ما لى أراكم رافعى أيديكم كأنها أذناب خيل شُمُس ؟ اسكنوا فى الصلاة » ـ رواه مسلم وأبو داود والنسائى، وما توهم منه أنَّ المراد منه رفع اليدين عند السلام مردود على قائله، ووهم نشأ عن قلة التدبر فى سياق الروايتين، ولو سلم وروده على سبب فقصر العام على سبب الخاص مذهب مرجوح .

ومنها : حديث عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا افتتح الصلاة رفع يديه فى أول الصلاة ثم لم يرفعهما فى شىء حتى يفرغ ـ وأخرجه البيهقى فى الخلافيات . وعباد تابعى، فالحديث مرسل ولكن المرسل حُجَّة عند الجمهور سيما إذا توبع بحديث آخر ـ كذا فى « البذل » ، والكلام على ما أورده على هذه الروايات بسطه الشيخ فى « البذل » ، والزيلعى فى تخريجه فارجع إليهما إن شئت .

والآثار فى ذلك كثيرة نلخصها لك على نهج الروايات المرفوعة . فمنها ما رواه الطحاوى والبيهقى عن إبراهيم عن الأسود قال : رأيتُ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يرفع يديه فى أول تكبيرة ثم لا يعود . قال : ورأيتُ إبراهيم والشعبى يفعلان ذلك، قال الطحاوى : فهذا عمر رضى الله عنه لمْ يكن يرفع يديه أيضاً إلا فى التكبيرة الأولى، والحديث صحيح قاله الزيلعى والطحاوى، وقال النيموى : رواه الطحاوى وأبو بكر بن أبى شيبة وهو أثر صحيح، وقال ابن التركمانى فى « الجوهر النقى » : وهذا السُنَّة على شرط مسلم، وقال الحافظ ابن حجر : رجاله ثقات، كذا فى « تعليق آثار السُنَن » .

ومنها : ما أخرجه الطحاوى ومحمد فى موطئه عن عاصم بن كليب عن أبيه أنَّ علياً رضى الله تعالى عنه كان يرفع يديه فى أول تكبيرة من الصلاة ثم لا يعود يرفع، وهو أثر صحيح اختلف فى رفعه ووقفه، وصوّب الدارقطنى فى « العلل » وقفه . قال النيموى : رواه الطحاوى وأبو بكر بن أبى شيبة والبيهقى وإسناده صحيح، قال الحافظ ابن حجر : رجاله ثقات . وقال الزيلعى : أثر

صحيح. وقال العينى : إسناده على شرط مسلم، قلت : وأخرجه محمد فى كتاب « الحجج » و « الموطأ » .

ومنها : ما أخرجه البيهقى عن عطية العوفى أنَّ أبا سعيد الخدرى وابن عمر رضى الله تعالى عنهما كانا يرفعان أيديهما أول ما يُكبِّران، ثم لا يعودان .

ومنها : ما أخرجه الطحاوى والإمام محمد فى موطئه عن إبراهيم النخعى قال : كان عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه لا يرفع يديه فى شىء من الصلاة إلا فى الافتتاح . قال النيموى : رواه الطحاوى وابن أبى شيبة، وإسناده مرسل جيد، رواته كلهم ثقات لكن النخعى لم يدرك عبد الله بن مسعود وكان لا يرسل عن عبد الله إلا بعد تواتر الرواية عنه . وقد أسند الطحاوى عن الأعمش أنه قال لإبراهيم النخعى : إذا حدثتنى فأسْنِده . قال : إذا قلتُ لك : قال عبد الله فلم أقل ذلك حتى حدثنيه جماعة عن عبد الله، وإذا قلتُ : حدثنى فلان عن عبد الله فهو الذى حدثنى (انتهى) . .

وقد استدل الدارقطنى بقول إبراهيم هذا فى الديات .

ومنها : ما أخرجه أبو بكر بن أبى شيبة فى مصنفه عن أبى إسحاق، قال : كان أصحاب عبد الله وأصحاب علىّ رضى الله تعالى عنهما لا يرفعون أيديهم إلا فى افتتاح الصلاة، قال وكيع : ثم لا يعود . قال النيموى تبعاً لابن التركمانى : إسناده صحيح .

ومنها : ما أخرجه الطحاوى عن أبى بكر بن عياش قال : ما رأيتُ فقيهًا قَطْ يفعله ـ يعنى يرفع يديه فى غير التكبيرة الأولى ـ وأبو بكر هذا من رواة البخارى ومن مشايخ الثورى وابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهم، قال ابن المبارك : ما رأيتُ أحداً أسرع إلى السُنَّة من أبى بكر بن عياش .

ومنها : ابن أبى شيبة عن الشعبى وقيس وابن أبى ليلى والأسود وعلقمة وأبى إسحاق أنهم لا يرفعون أيديهم إلا فى الافتتاح .

ومنها : ما أخرجه الإمام محمد فى كتاب « الحُجَج » من طريق مالك بسنده أنَّ أبا هريرة رضى الله تعالى عنه كان يُصلِّى بهم فيُكبِّر كلما خفض ورفع، وكان يرفع حين يُكبِّر لفتح الصلاة . . . وسيأتى فى كلامه .

ومنها : محمد فى موطئه عن عبد العزيز بن الحكيم قال : رأيتُ ابن عمر يرفع يديه حذاء أذنيه فى أول تكبيرة افتتاح الصلاة، ولم يرفع فيما سوى ذلك .

وروى الطحاوى عن مجاهد قال : صليتُ خلف ابن عمر رضى الله تعالى عنهما فلم يكن يرفع يديه إلا عند التكبيرة الأولى، قال النيموى : رواه الطحاوى وأبو بكر بن أبى شيبة والبيهقى فى « المعرفة » وسنده صحيح (انتهى) .

قلت : فهذا مجاهد وعبد العزيز توافقا على روايتهما أنَّ ابن عمر ترك الرفع ووافقهما عطية العوفى كما تقدم . وفى كتاب « الحجج » للإمام محمد بن الحسن الشيبانى قال محمد : وجاء الثبت عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وعبد الله بن مسعود انهما كانا لا يعرفان فى شىء من ذلك إلا فى تكبيرة الافتتاح . فعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنهما أعلم برسول الله ﷺ لأنه قد بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إذا قامت الصلاة فليلنى منكم أولوا الأحلام والنُهَى، ثم الذين يلونهم » ، فلا نرى أنَّ أحداً كان يتقدم على أهل بدر مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم إذا صلى . فنرى أنَّ أصحاب الصف الأول والثانى أهل بدر ومَن أشبههم فى مسجد المسلمين، وأنَّ عبد الله ودونه من فتيانهم خلف ذلك، فنرى أنَّ علياً وابن مسعود رضى الله عنهما ومَن أشبههما من أهل بدر أعلم بصلاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم لأنهم كانوا أقرب . .

أخبرنا محمد بن أبى أبان بن صالح عن عاصم بن كليب الجرمى عن أبيه قال : رأيتُ علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه رفع يديه فى التكبيرة الأولى من الصلاة المكتوبة، ولم يرفعهما فيما سوى ذلك .

أخبرنا يعقوب بن إبراهيم قال : أخبرنا حصين بن عبد الرحمن قال : دخلتُ أنا وعمرو بن مرة على إبراهيم النخعى، قال عمرو حدَّثنى علقمة بن وائل عن أبيه أنه صلَّى مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلَّم فرآه يرفع إذا كَبَّر وإذا كَبَّر للركوع . قال إبراهيم : لا أدرى لعله لم ير النبى ﷺ إلا ذاك اليوم، أيحفظ هذا منه ولم يحفظه ابن مسعود وأصحابه ؟ ما حفظته وما سمعته من أحد منهم، إنما كانوا يرفعون أيديهم فى بدء الصلاة حين يُكبِّرون (انتهى) .

وهكذا أخرج هذا الأثر الإمام محمد فى موطئه، قال النيموى : الصحابة رضى الله تعالى عنهم ومَن بعدهم مختلفون فى هذا الباب . أما الخلفاء الراشدون الأربعة رضى الله تعالى عنهم فلم يثبت عنهم رفع الأيدى فى غير تكبيرة الإحرام (انتهى) .

قال العينى : وفى « البدائع » روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ما كانوا يرفعون أيديهم إلا فى افتتاح الصلاة .

المسألة الثانية « قضية صلاة الوتر ثلاثاً لا تسليم بينها » :

قال صاحب « الفتح الرحمانى » :

مسألة : اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فى عدد ركعات الوتر، فقال الأئمة وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بإيتار الركعة الواحدة . وقال إمام الأئمة أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد رحمهم الله تعالى بإيتار ثلاث ركعات . قال ابن العربى : واختار سفيان الثورى الإيتار بثلاث ركعات وهو قول مالك فى الصيام . قلت : وهو مذهب جمهور السَلَف . قال العينى : روى ابن أبى شيبة عن الحسن قال : أجمع المسلمون على أنَّ الوتر ثلاثة لا يُسلم إلا فى آخرهن، وقال الكرخى : أجمع المسلمون . . إلخ

وروى الطحاوى عن عمر بن عبد العزيز أنه أثبت الوتر بالمدينة بقول

الفقهاء ثلاثاً لا يُسلِّم إلا فى آخرهن، واتفاق الفقهاء بالمدينة على اشتراط الثلاث بتسليمة واحدة يبيِّن لك خطأ نقل الناقل اختصاص ذلك بأبى حنيفة والثورى وأصحابهما، وممن قال : « يوتر بثلاث لا يفصل بينهن » عمر رضى الله تعالى عنه، وعلىّ، وابن مسعود، وحذيفة، وأبىّ بن كعب، وابن عباس، وأنس، وأبو أمامة، وعمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهم، والفقهاء السبعة واهل الكوفة كلهم قالوا : إنَّ الوتر ثلاث لا يُسلِّم إلا فى آخرها .

قال النيموى : وعن أبى خالد قال : سألتُ أبا العالية عن الوتر فقال : علَّمنا أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ أو عَلَّمونا ـ أنَّ الوتر مثل صلاة المغرب غير أنَّا نقرأ فى الثالثة، فهذا وتر الليل وهذا وتر النهار[1] .

وعن القاسم قال : رأينا أناساً منذ أدركنا يوترون بثلاث، وإنَّ كلاً لواسع، وأرجوا ألا يكون بشىء منه بأس . . (انتهى)[2] .

وأخرج محمد بن نصر فى قيام الليل عن عبيد بن السباق أنَّ عمر رضى الله عنه لما دفن أبا بكر رضى الله تعالى عنه بعد العشاء الآخرة أوتر بثلاث ركعات وأوتر معه ناس من المسلمين، وفى رواية : لم يُسلِّم إلا فى آخرهن .

وقيل للحسن : إنَّ ابن عمر رضى الله تعالى عنهما، كان يُسلِّم فى الركعتين من الوتر فقال : كان عمر أفقه من ابن عمر رضى الله تعالى عنهما، كان ينهض فى الثالثة بالتكبير . .

وعن عبد الله : صلاة المغرب وتر صلاة النهار، وعن أنس أنه أوتر بثلاث مثل المغرب لم يسلم بينهن، وعن أبى العالية : لليل وتر وللنهار وتر، فوتر النهار صلاة المغرب، ووتر الليل مثله، وعن خلاس بن عمرو بمعناه، وعن بكر ابن رستم : سمعتُ الحسن ومحمداً وقتادة وبكر بن عبد الله المزنى ومعاوية بن قرة وإياس

---

(١) رواه الطحاوى وإسناده صحيح.

(٢) رواه البخارى.

ابن معاوية يقولون : الوتر ثلاث، وعن أبى إسحاق : كان أصحاب علىً وعبد الله لا يُسلِّمون فى الوتر بعد الركعتين، وأخرج محمد فى موطئه عن ابن مسعود قال: الوتر ثلاث كثلاث المغرب، وقال ابن عباس : الوتر كصلاة المغرب، وأخرج النيموى عن المسور بن مخرمة قال : دفنا أبا بكر ليلاً فقال عمر : إنى لم أوتر، فقام فصففنا وراءه فصلَّى بنا ثلاث ركعات لم يُسلِّم إلا فى آخرهن [1]، والآثار فيها كثيرة بسطها الطحاوى وغيره، وهذه حُجَّة لمن قال إنَّ الوتر ثلاث . قال القارى : ولا يوجد حديث يدل على ثبوت ركعة مفردة فى حديث صحيح ولا ضعيف، وقد ورد النهى عن البتيراء ولو كان مرسلاً، والمرسل حُجَّة عند الجمهور (انتهى) .

واستدل الحنفية على ذلك بما فى مسند الإمام أبى حنيفة عن أبى سفيان عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم : « لا فصل فى الوتر » .

وروى النسائى وابن السنى عن ابن إبزى مرفوعاً : كان صلى الله تعالى عليه وسلم يوتر بثلاث ولا يُسلِّم إلا فى آخرهن، ورواه الحاكم وقال : على شرطهما .

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها وأرضاها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوتر بثلاث ولا يُسلِّم إلا فى آخرهن، وهكذا روى النسائى عنها مرفوعاً : « لا يسلِّم فى ركعتى الوتر » .

وقد بسط الكلام على المسألة الطحاوى فى « شرح معانى الآثار » بما لا يسعه هذا الموجز، وما أطنبنا فى ذكر الآثار وبيان مذهب جمهور السَلَف إلا لما قيل إنَّ أبا حنيفة رضى الله تعالى عنه متفرد فى ذلك، والجمهور بخلافه، وقد ثبت بالروايات الشهيرة الكثيرة حتى أطلق عليه الإجماع إيتار السَلَف بثلاث ركعات، حتى ينكر على مَن أوتر بركعة .

---

(١) أخرجه الطحاوى وإسناده صحيح .

قيل لابن عباس : هل لك فى أمير المؤمنين معاوية ؟ ما أوتر إلا بواحدة قال : أصاب، إنه فقيه . وفى رواية : فإنه قد صحب النبى ﷺ (١) .

فهذا صريح فى كون معاوية شاذاً منفرداً فى ذلك الفعل، ولو كان الإيتار بواحدة أيضاً شائعاً بينهم لما أنكر عليه مولى لابن عباس .

وروى الطبرانى فى معجمه بسنده عن إبراهيم قال : بلغ ابن مسعود أنَّ سعداً يوتر بركعة فقال : ما أجزأت ركعة قط .

وسئل أبو العالية عن الوتر فقال : علَّمنا أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ الوتر مثل صلاة المغرب، هذا وتر الليل وهذا وتر النهار .

قلت : وستأتى الآثار الواردة فى ذلك وأنت خبير بأن الروايات الواردة فى الإيتار بركعة بلفظ : « فليوتر بركعة توتر له ما قد صَلَى » صريحة فى تقديم شفع قبل ذلك وإلا فلأى شيء توتر هذه الركعة، لذا استدل به ابن رشد وغيره على إيجاب الشفعة قبل ركعة الوتر فهى حُجَّة للحنفية أيضاً لما أنه ليس فى واحد منها الفصل بالسلام (٢) .

* * *

إننا مع التحقيق إذا أتى من أهله، ومع الترجيح إذا أتى من أهله، ومع الدليل إذا أحيط بمجموع الأدلة، ولكن هذا لا يتأتى لإنسان ما لم يبدأ البداءة المعقولة، فيدرس الأحكام التى استقر عليها أئمة الاجتهاد، ويدرس أدلتهم دراسة إتقان، مع إتقانه لكل العلوم اللازمة للمقارنة والترجيح، من علم كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ومعرفة بالعربية ووجوهها . . . . إلى غير ذلك .

ولكن هل يتأتى هذا لإنسان ؟ إنه إذا وُجدَ فى الجيل واحد من هذا النوع يكون عظيماً لأن فقه الحنفية ـ حتى يُهضم – يحتاج إلى أربعين سنة، فضلاً عن غيره.

أما التحقيق فى المسألة الواحدة من أهله فهذا لا حَرَج فيه بشروطه .

* * *

---

(١) رواه البخارى. (٢) انظر: أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك جـ ١ ص ٤٣٥ .

OBEIKAN.COM

وأخيراً فهناك فكرة قد يحملها الناس على غير محمل هى :

إنَّه ليس من اللائق فى عصرنا ـ وقد تحكمت الجاهلية وكان كل شيء من ثمارها ـ أن نقضى أوقاتنا فى دراسة الحلال والحرام والفقه الذى له علاقة بهذه الثمار المرة، فالجاهلية مرفوضة من أساسها، وعلينا ألا نشغل أنفسنا فى رد تفصيلاتها بل بردها جملة .

والفكرة من حيث العمل والدعوة وجهة نظر تحتاج إلى تأمل عميق .

ولكن هناك جانب آخر لا بد من إخراجه من هذا الإطار هو :

إننى كإنسان مسلم أعيش فى مجتمع تنطبق علىَّ أحكامه، وتسرى علىَّ قوانينه، وقد ابتُلِىَ بشيء من هذه القوانين، فلا بد أن أعرف حكم الله فيه لأعرف كيف أتصرف التصرف السليم، فقد تصدر حكومة كافرة قانوناً يقضى بتخفيض الأجور، وأكون مستأجراً فهل أستطيع الاستفادة من هذا القانون أم لا ؟

الدولة فيها وظائف، هل هناك وظائف لا يجوز لى استلامها والعمل فيها ؟

وهكذا أمور كثيرة تعرض المسلم يومياً، والعلماء قالوا : الفتوى تقدَّر زماناً ومكاناً وشخصاً، ولا بد للمسلم أن يعرف حكم الله فى قضيته بملابساتها الحاضرة .

وهذا يقتضى من المسلم أن يسأل، ومن العلماء أن يبحثوا ويفتوا، ولا نقصد طبعاً البحث من أجل تبرير ما فعلته الدولة للدولة، ولا البحث من أجل التقرب لذوى السلطان، وإنما نقصد البحث الفقهى المجرد الذى غايته تعريف المسلم على حكم الله فى القضية المبتلى بها غير المتخيلة، إنَّ من المسلمين تجاراً يتاجرون مع دار الحرب، ويؤمَّن على بضائعهم هناك، فهل يحق لهم حال تلفها أن يأخذوا التعويض أو لا ؟

مسلم كان يضع أمواله فى بنك بالربا ثم تاب، ماذا يفعل فى المال الحرام ؟

عشرات القضايا لا بد من إصدار الفتوى فيها، ولا بد من اختصاص وتتبع للوصول إلى ذلك .

مثل هذه الجوانب لا بد من إخراجها من عموم الفكرة السابقة التى أشرنا إليها، إنَّ مجال تلك الفكرة هى طريقة الدعوة والعمل والمجابهة والمناقشة، وليس مجالها هذا الذى أشرنا إليه آنفاً .

* * *

لا بد من دراسة العقيدة كما استقر عليها ضمير علماء أهل السُنَّة وسجَّلوه فى كتبهم، ولا بد من دراسة الفقه كما استقر عليه ضمير هذه الأمة وسجَّلوه فى كتبهم، ولا بد من دراسة الأخلاق الإسلامية، وعلينا أن ندرس هذا كله مع الدليل إذا استطعنا، وإذا لم نستطع فالثقة فى الأئمة موجودة بفضل الله .

وعلينا أن نقرأ كل شيء كُتِبَ عن الإسلام، وأن نقارن ونحقق ونرجِّح إن ملكنا أهلية ذلك .

ونبقى بعد هذا كله على كمال الأدب مع السابقين لنا بإحسان .

هذا إذا أردنا أن نكون طُلاَّب آخرة .

أما الذين يريدون الطريق الآخر، فلا نقول لهم إلا : ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ** ﴾ [القصص : ٥٥].

قال رجل عند وكيع : أخطأ أبو حنيفة، فزجره وكيع وقال : ما هذا إلا كالأنعام بل هو أضل سبيلاً، كيف يخطىء وعنده أئمة الفقة، كأبى يوسف، ومحمد، وأئمة الحديث وعدَّدهم، وأئمة اللغة العربية وعدَّدهم، وأئمة الزهد والورع كالفضيل وداود والطائى، ومَن كان أصحابه هؤلاء لم يكن ليخطىء لأنه إن أخطأ ردوه إلى الحق .

ونحن لا نقول : إنَّ أئمة الاجتهاد معصومون، ولكن نقول : إنهم أولى بالحق من مدَّعى الاجتهاد فى زماننا، فهم أكثر علماً وتقوى وقُرباً من عصر الصحابة، وأدق فى فهم العرب، وأعرف بمناحى الخلاف وأسبابه، فإذا قال قائل : نحن لا نخرج من أقوالهم، ولكن نرجِّح بينها . نقول له : لقد جعلتَ نفسك أعلم الجَميع إذ نصبتَ نفسك قاضياً بينهم وأميراً عليهم، إنَّ الذى يستطيع الترجيح هو الذى يستطيع أن يدرك المدارك الخفية والظاهرة لكل منهم، وعنده قُدرة على إصابة الحق فيما اختلفوا فيه، ويبدو أنَّ مثل هذا نادر الوجود .

* * *

قال أحد هؤلاء الذين لا يرون مجتهدى الأمة الإسلامية شيئاً : إنَّ الله قال: ﴿ **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ** ﴾[البقرة:٢١٣] ، قال هذا الرجل هذه الآية مستشهداً على أنَّ القضايا التى اختلف فيها علماء الاجتهاد يصل إلى حكم الله فيها أهلُ الإيمان .

فقلت له بعد : إذن بهذا تكون الأمة كلها ضالة .

فأبو بكر وعمر اختلفا فى بعض الأحكام الاجتهادية، فإذن بمقتضى الاستشهاد بالآية أحدهما يكون مهتدياً، والآخر ليس كذلك، وهكذا الصحابة مع بعضهم، وهكذا الأئمة مع بعضهم .

أحد الأقوال هدىً والأخرى ماذا ؟

إذا اختلف أحمد، والشافعى، ومالك، وأبو حنيفة فى مسألة، وقال كل منهم قولاً يختلف عن الآخر، فأحدهم إذن يكون على هدًى إذا وافق الحق، والثلاثة على ضلال .

* * *

إنَّ هؤلاء الذين يتجهون مثل هذه الاتجاهات نجدهم أحياناً يخالفون البديهيات، ويخالفون إجماع الأمة، ويخالفون الفِطرة بغلوهم فى قضية الاختلافات فى الفروع .

* * *

وقال أحدهم : إنَّ علينا أن نلغي كل الفهوم السابقة، والاجتهادات السابقة، ونستأنف فهم الكتاب والسُنَّة من جديد، وقد يصوغ بعضهم هذا المعنى بشكل أكثر زخرفة فينادى بالعودة إلى الكتاب والسُنَّة وإهمال ما عداهما.

والأسئلة التى يمكن أن تطرح على أمثال هؤلاء هى :

مَن هذا الذى يملك قدرات الأخذ من الكتاب والسُنَّة فى كل شىء دون الاستعانة بأقوال العلماء السابقين؟ وهل قول هذا الإنسان أولى بالاتباع أو الأئمة؟ وهل هذا الذى يريد استئناف الفهم سيفهم على ضوء قواعد جديدة يضعها ؟ وما هى هذه القواعد ؟

إننا نقول بصراحة ووضوح إنَّ فهماً للكتاب والسُنَّة، يختلف عن مفهوم سَلَف الأمة وعلمائها خلال العصور لا يمكن أن يكون أقرب للحق، وكلامنا كله إنما هو بمناسبة الحديث عن الأحكام والحلال والحرام .

هل تغيَّرت السُنَّة حتى نستطيع أن نفهمها فهماً جديداً يختلف عن فهم السابقين ؟ هل تغيَّرت اللغة حتى نرفض فهم السابقين ؟

إنَّ الكتاب والسُنة هما هما، واللغة العربية هى هى، والسابقون أحاطوا وتفرغوا واتقوا .

لو قال هذا القائل : إنَّ هناك أحكاماً فقهية ينبغى أن يُعاد النظر فيها لقلنا له : ذلك صحيح، لأنَّ ما بُنِىَ على العُرف لا بد أن يتغير بتغير العرف، وما بُنِىَ على معنى لا بد أن يتغير بتغير المعنى، وما بُنِىَ على زمان لا بد أن يتغير بتغير الزمان، وقد قال علماؤنا قديماً : « الفتوى تُقدِّر زماناً ومكاناً وشخصاً » .

ولكن كم هى هذه المسائل بالنسبة لكل كلام الفقهاء حتى تكون حُجَّة لنبذ كلام العلماء فى كل شىء .

تعالوا نستعرض أبواب الفقه باباً باباً، ثم أرونا ما هو الذى ينبغى أن يُنبذ، وما الذى تريدون أن تضعوه بدله : الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، النكاح، الطلاق، المعاملات، الحدود ؟ !

فليتق الله امرؤ يقول هذا الكلام .

إنَّ علينا أن ندرس الكتاب والسُنَّة، وأن نفهم الكتاب والسُنَّة، وأن نعرف ما قاله علماء الأمة المعتمدون فى فهمهم للكتاب والسُنَّة، وأن ندرس ما استنبطوه بناءً على الكتاب والسُنَّة، دون أن نتعصب إلا للحق الذى قام عليه الدليل، والحق الذى قام عليه الدليل لا يكون أبداً بنبذ أقوالهم واستئناف فهم جديد، فما خرج الحق عن أقوالهم، وإلا فإنَّ الأمة تكون ضالة خلال العصور . . وهذا كذب .

* * *

إنَّ أصحاب هذه الدعوات إنما يؤمِّنون أنفسهم فقط، وتبقى الأمة عارفة بعد ذلك وقبله من هم أئمة الهدى الذين يُهتدى بهديهم .

إنَّ لسان حال الواحد من هؤلاء يقول : اقتدوا أيها الناس بفهمى للكتاب والسُنَّة، ودعوا فهوم مالك وأحمد والشافعى وإمام الأئمة أبى حنيفة . . . وهيهات .

* * *

إننا ندعو إلى قراءة الفقه الإسلامى، كما دعونا إلى دراسة الكتاب والسُنَّة، لأنَّ ذلك ضرورى، ولا يعنى هذا أننا ندعو إلى التعصب المذهبى، فنحن ضده، ولا إلى عدم التحقيق إذا وُجِدَ أهله، ولكن بداية التحقيق دراسة الفقه وأقوال الفقهاء .

ولكن كم من الناس عندهم مَلَكة التحقيق ؟

وهل نقول للعامى : حقق أولا ثم صَلِّ، أو نقول له : تعلم فقه الصلاة على أى مذهب معتمد ثم حقق، وهل أهل الفقه الآن محققون ؟

ولو أننا قلنا لعامى : ادرس فقه الصلاة فى كتاب حديث، ألا يحتمل أن يعتمد المنسوخ ويترك الناسخ ؟

ولو أننا قلنا له : ادرس فقه الصلاة على رأى محقق جديد، ألا يحجنا بقوله : إن تحقيق أحمد أحب إلىَّ لأن أحمد أعلم من هذا الرجل ؟

إنَّ الشىء الذى قبله ضمير الأمة الإسلامية كلها لن يستطيع أحد أن يخدع عنه هذا الضمير .

٨- تاريخ الأمة الإسلامية وحاضرها

١- إنَّ قراءة التاريخ من أهم عوامل تكوين الشخصية، ومن أهم عوامل شهور الأمة بذاتها، ولا يحس الإنسان بارتباطه العضوى بأُمة إلا بعد انصهاره فى تاريخها، وكلما كانت معرفته أجود، كانت أحاسيسه أدق وكان وعيه على واقعه المؤلم أكبر .

٢- وحياة رسول الله ﷺ وحياة الصحابة، ودراسة أحوال الخلفاء الراشدين وأقوالهم وأعمالهم، تعتبر شيئاً أساسياً بالنسبة للمسلم لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ جعل قدوة الأمة الإسلامية رسولها ﷺ وصحابته والخلفاء الراشدين، ولا اقتداء إلا بمعرفة : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب : ٢١].

﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ** ﴾ [التوبة : ١٠٠].

« عليكم بسُنَّتى وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عُضُّوا عليها بالنواجذ »(١) .

٣- وتاريخ المسلمين لا يعنى الإسلام . فتاريخنا فيه مآس من الخروج على الإسلام، وفيه مآس سببها الانحراف عن الإسلام، وفيه دروس ضخمة وتجارب رائعة كلها وراءها الإسلام، وفى تاريخنا مفاهيم خاطئة روَّجها ناس، وأهم من هذا كله أن هناك صفحات من تاريخنا كلها خيانة تولى كبرها الكافرون والخائنون، ثم نُظِرَ إليها على أنها أشياء عظيمة جداً، وخاصة ما له علاقة بتاريخنا الحديث، وهناك فى تاريخنا مجرمون يُصوَّرون اليوم كأبطال، وهناك قضايا

---

(١) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود، وأبو داود والترمذى من رواية العرباض بن سارية، وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

أساسية كجزء من الإسلام العظيم تُصوَّر اليوم بشكل بشع مستهجَن كقضية الخلافة، كما أنَّ هناك محاولات لتضخيم بعض الأخطاء وربطها بالإسلام، كما أنَّ هناك محاولات لدراسات تاريخية يُقصد بها التأكيد على توسيع الهوة بين المسلمين، وإبراز الفُرقة، كما أنَّ هناك محاولات لجعل جزء من تاريخنا يخدم اتجاهات كافرة، كل هذا يجعلنا بحاجة إلى دراسة تاريخنا والإلحاح على بعض فقرات منه وإبرازها بصورة جيدة، ولا يحل مشاكلنا المشار إليها إلا العلم.

٤- يقول عليه السلام: « مَن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »[١].

والاهتمام بأمر المسلمين يشمل معرفة بلدانهم، وأحوالهم في بلدانهم، والمؤمرات عليهم، والدوائر التي تكيُد لهم، والمصائب التي تنزل بهم، وهذا كله لا يتم بلا معرفة مباشرة، وتحسس مباشر، وتألم مباشر، وتجاوب دائم، وإلا فكيف نتحقق بالحديث: « مثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسدإذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »؟[٢].

لذلك كانت معرفة توزع المسلمين في العالَم، ومعرفة أوضاعهم السياسية والاقتصادية، ومعرفة الحركات الإسلامية وحال الإسلام ومدى الردِّة في كل قُطر جزءاً أساسياً في الثقافة الإسلامية.

ولذلك كان وجود وكالة أنباء إسلامية ضرورة، ووجود مجلات تتتبع حال المسلمين ضرورياً.

٥- إنَّ دراسة التاريخ الإسلامي، وحاضر المسلمين، وربط ذلك بالإسلام كله، أخذاً ورداً، تعليلاً وتبياناً، بحيث يفهم موقف الإسلام من كل قضية وقعت أو تقع شيء مهم جداً، خاصة فيما حدث بين أفراد الجيل الأول، حتى لا نقع في ورطات عقيدية خطرة، أو نتخذ مواقف يلعننا بها الله عَزَّ وجَلَّ.

---

(١) رواه البيهقي عن أنس رفعه بلفظ: «ومن أصبح لا يهتم للمسلمين فليس منهم» وله تتمة، وهو عند الطبراني وأبي نعيم.

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير.

٦- وهناك جانب آخر لا بد أن نعرفه بارزاً، هذا الجانب هو الحضارة الإسلامية العظيمة وآثارها على الفكر العالَمى، وتبيان أنَّ أديان العالَم كلها سبب التخلف المدنى، إلا الإسلام فإنه طريق التقدم الحضارى أبداً، ولولاه ما كانت هذه المدنية الأوروبية القائمة الآن . ثم ماذا خسر العالَم بضعفنا الحالى .

ولتحقيق هذه الجوانب كلها نقترح قراءة ما يلى :

١- كتاب « تهذيب سيرة ابن هشام » أو « نور اليقين » ، ونفضل قراءة « فقه السيرة » للدكتور البوطى .

٢- « حياة الصحابة » .

٣- « العواصم من القواصم » .

لمعرفة أحوال أعظم جيل شهدته الإنسانية، الجيل الذى لم يرتق أحد إلى مثل ما ارتقى إليه أخلاقاً وسلوكاً، وأدباً ووعياً، وخيراً وعدلاً، ورحمة وشجاعة، ومعرفة بالله واتقاءً لغضبه، وطلباً لمرضاته، وتجرداً للآخرة، وزهداً فى الدنيا .

ولمعرفة الموقف السليم من قضايا الخلاف التى وقعت بين الصحابة :

٤- « الدعوة إلى الإسلام » لأرنولد ـ على أخطاء ناتجة عن كفره لنأخذ به صورة عن انتشار الإسلام خلال العصور .

٥- « ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين » كدراسة تحليلية تاريخية للحاضر والماضى .

٦- « من روائع حضارتنا » للدكتور السباعى، لنرى مقدار الإشراق فى تاريخنا العظيم .

٧- « تقويم العالَم الإسلامى » لمعرفة توزع المسلمين فى العالَم وأوضاع العالَم الإسلامى .

٨- سلسلة « مواطن الشعوب الإسلامية » ، وكتاب « العالَم الإسلامى ومحاولة السيطرة عليه » للأستاذ محمود شاكر .

OBEIKAN.COM

ويبقى هنالك كتابان لا بد من إيجادهما :

١- تاريخ الأمة الإسلامية .

٢- حاضر العالَم الإسلامى .

فنحن نحتاج إلى كتابة تاريخ مختصر للأمة الإسلامية من يوم الإسلام الأول إلى عصرنا هذا، على ألا يتجاوز ألف صفحة يستطيع المسلم إذا درسه أن يعرف كل شيء عن تاريخه، فمن المؤسف أننا الآن نعرف تسلسل حوادث التاريخ الإسلامى، فضلاً عن أن نعرف تفصيلاتها، فضلا عن معرفة تعليلاتها الإسلامية، ومن المؤسف أنَّ المحاولات التى جرت لمثل هذا كانت إما بيد كافرة أو أنها لم تتم، أو أنها بيد ناس لم تصف مفاهيمهم الإسلامية إلا إذا كان هناك شيء كامل لم نسمع به .

ونحن نحتاج كذلك إلى كتاب يتحدث عن حاضر العالَم الإسلامى من حيث الحركات الإسلامية فيه، ونوعها وصراعها، والدوائر الكافرة والفاسدة فى كل قُطر، وطبيعة الصراع ما بين الإسلام وغيره فى كل قُطر . . وهكذا .

ونرجو أن يخرج هذان الكتابان بسرعة بجهود المسلمين المخلصين إن شاء الله تعالى .

* * *

٩- علوم اللغة العربية

إنَّ علوم اللغة العربية أجزاء أصيلة فى الثقافة الإسلامية من جوانب عدة، وكى يكون هذا واضحاً فلنضرب أمثلة :

تصور أنَّ دعاة كتابة اللغة العربية بالخط اللاتينى أفلحوا فى دعوتهم، فماذا يكون ؟

أول شيء يحدث أنَّ الجيل الجديد لا يستطيع أن يقرأ كل ما كُتبَ بالحرف العربى خلال العصور، ومعنى هذا أنه بضربة واحدة قُضِىَ على الثقافة العربية الإسلامية جملة .

وتصور أنَّ الدعاة إلى اعتماد اللغة العامية المحلية لكل قُطر قد أفلحوا فى دعوتهم، فماذا يكون ؟

أول شيء يكون هو أن تموت اللغة العربية الفصحى، ثم تنشأ لغات محلية وليدة تبلغ المئات . كما حدث بالنسبة للغة السنسكريتية واللغة اللاتينية، وينتج عن ذلك ألا يفهم العرب بعضهم بعضاً، ثم ألا يفهم الناس ما كُتبَ بالفصحى قديماً كما يحدث الآن فى بريطانيا وفرنسا وغيرهما، حيث لا يفهم الرجل المعاصر نصوص لغته قبل مئتى سنة أو أقل أو أكثر، وبذلك تُضرب الثقافة العربية الإسلامية ضربة واحدة .

وتصور الآن أنَّ الدعاة إلى تطوير الإملاء والصرف العربيين بحيث تتغير قواعد النحو والكتابة أفلحوا فى دعوتهم، فماذا يجرى ؟

أقل ما يحدث أنَّ الصعوبات تبدأ تواجه قراءة الكتب العربية المكتوبة بالطرق الأولى، وإذا ما ضُربَ النحو العربى فإن الفصحى كلها تسقط، وإذا ما ضُربَت علوم البلاغة فإن أساليب العرب تسقط، وبالتالى لا تُفهم، وإذا ما ضُربَ علم العروض سقط ديوان العربية كله .

لذلك كله كانت علوم اللغة العربية من أهم أسس الثقافة الإسلامية التى ينبغى أن يحافظ عليها بالسهر والجد والكفاح العنيف .

ومن أجل أن تكون عندنا ثقافة عربية جيدة فلا بد من :

١- قراءة كتاب فى الخط العربى .

٢- قراءة كتاب فى الإملاء العربى .

٣- قراءة كتاب فى النحو والصرف .

٤- قراءة كتاب فى علوم البلاغة .

٥- قراءة كتاب فى علم العروض .

٦- الاطلاع على قواميس اللغة العربية القديمة .

ونحب أن نذكر ملاحظتين :

الأولى : أنَّ الكتب التى لم تُكتب بيد مسلمين ملتزمين بالإسلام فيها دس كثير، ولها أغراض خبيثة إلا النادر، والنادر لا حكم له، خذ مثلاً « قاموس المنجد - قسم الأعلام » : تراه مثلاً عندما يُعرِّف مصطفى كمال أتاتورك يذكر بأن من أعظم إصلاحاته أنه كتب اللغة التركية بالحرف اللاتينى بدل الحرف العربى، فأى فظاعة أكبر أن يُعتَبر أعظم الإصلاحات استبدال الحرف اللاتينى بالعربى فى قاموس للعرب والعربية .

الثانية : أنَّ من أهم ما تقرؤه - زيادة على ما مَرَّ - ما له علاقة بفقه اللغة العربية وميزاتها، إنَّ اللغة العربية هى أعظم اللغات على الإطلاق، وهذا لا شك فيه عند العلماء المطلعين فلا أخصر ولا أنضج ولا أدق فى التعبير منها .

ويوم قامت بعض الجامعات العربية بالدعوة إلى جعل اللغات الأجنبية لغات العلوم - للأسف - استطاع محاضر واسع الاطلاع على اللغات أن يبرهن أنَّ اللغة العربية لا يعجزها التعبير عن شىء وبشكل أجود وأمتن وأخصر من غيرها .

وعلى كل حال ففى هذا العصر الذى كثرت فيه الغارة على اللغة العربية لا بد أن يكون جزءاً من ثقافتنا دراسة فقه اللغة وميزاتها، ولعل كتاباً يخرج فى

OBEIKAN.COM

الموضوع، ولو أنه كتاب يجمع المقالات القصار المبعثرة للكتاب الثقات المجيدين فى الموضوع، كالعقاد، والمبارك والطنطاوى والرافعى ومحمد محمد حسين وأضرابهم من المنافحين عن هذه اللغة يحل المشكلة، وقد طُرِحَ فى الأسواق كتاب للأستاذ المبارك فى هذا الموضوع .

نتوصل إننا لا نستطيع أن نفهم النصوص، ولا أن نرى بلاغتها، ولا أن نتوصل إلى دقائقها، ولا أن نعثر على الإعجاز فى القرآن . كما لا نستطيع أن نفهم الاستنباطات الدقيقة لعلماء المسلمين . كما لا نستطيع أن نعرف أوجه القراءات القرآنية . . إلى أشياء كثيرة جداً . إلا بعلوم هذه اللغة كما وضعها علماؤنا الأقدمون . وليست هذه دعوة ضد التبسيط والتسهيل، فهذا لا خلاف فيه، ولا حَرَج، ومكتبة اللغة العربية مليئة بالمبسَّط والسهل ولكنَّا ضد التطوير الخبيث، وضد التغيير الهادف للإضلال، وضد التحريف المهدم، وضد الدعوات المائعة الكافرة التى تستهدف هذه اللغة .

وهذا كله لن يتحقق لنا إلا إذا كان كل مسلم واعياً هذه اللغة، مدركاً إياها، مستوعباً علومها، مقتنعاً باتجاهات علمائها، رابطاً بين هذه الاتجاهات وخدمة نصوص الإسلام .

أما الكتب التى يمكن أن تُقرأ تحقيقاً لهذه الغاية فكثيرة، وهذه قائمة بأسماء بعض هذه الكتب التى يمكن الاستفادة منها، وإنما أردنا التمثيل، وإلا فما تيسر للإنسان من كتب الأعلام الثقات المعتمدة يستطيع أن يقرأه بعد استشارة مَن يثق بعلمه ودينه، وقد يتوفر فى قُطر ما لا يتوفر فى آخر .

١- فى النحو : شذور الذهب، أو قطر الندى، أو شرح ابن عقيل، ومغنى اللبيب فى النهاية .

٢- فى البلاغة : البلاغة الواضحة .

٣- فى المفردات : القاموس المحيط، أو مختار الصحاح، أو الصحاح للجوهرى .

٤- فى الإملاء : المفرد العلم فى رسم القلم .

وأخيراً . . إنَّ اللغة العربية ضرورية لنا، كى نقرأ ونفهم ويبقى الإسلام، ولكنها ضرورية لنا كذلك كى نكتب ونتكلم، فلا بد للمسلم أن يدعو، وأهم وسائل الدعوة : الخطابة، والمحاضر، والكتابة، والتدريس، ولن يؤدى الإنسان دوره فى هذا إلا إذا أتقن اللغة العربية إتقاناً جيداً، والذين يحتقرون هذه الجوانب فى الدعوة، ناس جهلة بقيمة الكلمة، إنَّ واعظاً واحداً قد يقلب بلداً كاملة، ومحاضرة جيدة قد تهدم كثيراً من الفكر المنحرف، ولا نعنى طبعاً أن نترك الشيء الآخر، ولكن هذا لا بد منه، فكلما كانت وسائل الدعاة أكثر كلما كانوا أقدر على الحركة، والرسول ﷺ كان يرد بخطيب على خطيب، وبشاعر على شاعر، كما هو المعلوم من سُنَنه، ونحن علينا أن ننازل الخصم بأسلحة مكافئة إن استطعنا .

ونحب فى هذه الفقرة أن نُذكِّر بقضية هى :

إنَّ بلاد الإسلام عامرة بالمكتبات ولله الحمد . وهذه المكتبات فيها الكثير مما ألَّفه المسلمون فى كل علم، وفيها كذلك الكتب التى تعطينا صورة عن العلوم كلها، وما ألَّفه المسلمون فى كل علم منها خلال العصور، وتاريخ هذه العلوم .

ويبدو أنَّ الاطلاع العام على المكتبة الإسلامية ولو بتصفح ما فيها، جزء أساسى، ولئن كنا فى هذا البحث الموجز أردنا أن نذكر للمسلم ما يلزمه عملياً فى عصرنا هذا، فلا ينبغى أن يقف المسلم عند هذا الحد، بل لا بد له أن تكون عنده إلمامة عامة ببعض ما أنتجه المسلمون خلال حياتهم العملية الطويلة فى فروع الثقافة .

إنَّ مثل هذه النظرة، بعد أن يُحصِّل المسلم العلوم الضرورية له، تُوسع آفاقه فى كل موضوع، وتجعله قادراً بإذن الله أن يتابع بحثاً رأى أن يختص به، أو على الأقل يستطيع أن يراجع مسألة أراد أن يتوسع فيها، أو يرد على منحرفين فى موضوعها .

١٠- التحديات والمؤامرات

معرفة العدو، ومعرفة تحدياته، ومعرفة مؤامراته ومخططاته، شيء أساسى فى حياة المسلم المعاصر، فالله عَزَّ وجَلَّ قال :

﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

[البقرة : ١٢٠]

﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

[البقرة : ٢١٧]

وقد نجح الكافرون اليوم فى جعل جيل كامل منا يرتَّد عن دينه، ومظهر ذلك هذا الجيل الذى لا يعتبر صراع الإسلام صراعاً له، ولا الكيد للإسلام كيداً له، ولا التآمر على الإسلام تآمراً عليه، بل أخذ يشارك فى حرب إسلامنا والكيد له والتآمر عليه .

وعملياً فإن المتآمرين على الإسلام هم الاستعمار بدوله الاستعمارية كلها بريطانيا وفرنسا وأمريكا و . . . وكذلك الشيوعية بفروعها كلها، وكذلك الصليبية بأجهزتها جميعاً، وكذل اليهودية وبنتها الماسونية، أو شبيهتها كنوادى الروتارى والليونز، هذا عدا عن تآمر الكافرين أنَّى كان جنسهم وعلى أى أرض .

ولا تجد نوعاً من أنواع المتآمرين إلا وتجد له أذناباً من أبناء المسلمين، لهم أسماء إسلامية، وهم منافقون، أو كافرون بصراحة، ينفذون ما يريد أسيادهم . لذلك كان لا بد للمسلم أن يعرف عدوه، ويعرف تحدياته ومؤامراته ومخططاته، ويعد لذلك كله عُدَّته لمن ظهر أو خفى من أعداء الله عَزَّ وجَلَّ .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠].

ومبدئياً نقترح دراسة ما يلى لتأمين ثقافة سريعة حول هذه الجوانب :

١- دراسة كتاب « التبشير والاستعمار » ، وكتاب « الغارة على العالَم الإسلامى » لمعرفة شىء عن التخطيط الصليبى فى العالَم الإسلامى، وعلاقته بالدول الاستعمارية التابع لها .

٢- دراسة « الاتجاهات الوطنية فى الأدب العربى المعاصر » ، « حصوننا مهددة من داخلها » ، « الغزو الفكرى والدعوة القومية » ، لورنس فى « أعمدة الحكمة السبعة » ، « كيف هُدِمت الخلافة » لمعرفة شىء عن التخطيط الاستعمارى فى العالَم الإسلامى .

٣- دراسة « التضليل الاشتراكى » ، « بلشفة الإسلام » ، « أعمدة النكبة » ، « موسكو وإسرائيل » ، « الهلال الشهيد » لمعرفة التخطيط الشيوعى ضد الإسلام فى المنطقة .

٤- دراسة « بروتوكولات حكماء صهيون » ، « أوقفوا هذا السرطان » لمعرفة جزء من المخططات اليهودية العالَمية وأجهزتها كالماسونية .

٥- دراسة « الثقافة الإسلامية . . خصائصها، تاريخها، مستقبلها » للدكتور عبد الكريم عثمان رحمه الله، وهو كتاب صغير لكنه يجعل يدك على لُباب من الأمر فى جوانب كثيرة من هذا الموضوع .

ولكن المسألة أكبر من ذلك، فلا بد من ملاحقة المخططات ومعرفتها، وفضحها والبحث عنها فى ثنايا ما يُكتب وما يُخفى، وفى الهمسات والاقتراحات والمؤتمرات، وما ذكرناه من دراسات إنما هو لإيجاد وعى مبدئى على هذه الأمور مع ملاحظة أنَّ هذه الكتب إنما تمثل وجهة نظر مَن كتبها وإطلاعاته، نقول هذا حتى لا يتحمل المسلم مسئولية رأى خاطىء ذُكِرَ فيها، إذ لا يخلو بعضها من خطأ ولا يخلو بعضها من جهل بالإسلام وتحامل عليه، ولكن قراءتها ضرورية لاستكمال الصورة ووضوح الإبصار .

إنَّ المتتبع لما يجرى فى العالَم الإسلامى يجد فى كل قُطر آلافاً من الجواسيس، وآلافاً من الدوائر المرتبطة بالكافرين، ويجد الكافرين وراء ثورات وانقلابات، ووراء أحزاب ومؤسسات، ووراء مدارس ومجلات وصحف .

كما يجد الكافرين وراء التقسيم الفظيع، والجزئية المستمرة، ووراء الواقع المتعفن غير المنطقى لكثير من الأقطار والأوضاع .

كما يجدهم وراء المناهج الثقافية، والدراسات القائمة، ووراء بعض دور النشر ووراء آلاف من الكتب .

وهذا كله يحتاج إلى معرفة وتجاوز .

أن أعرف عدوى ومخططاته وكيف أضربه معها شىء بديهى فى عملية الصراع ضد الكفر .

* * *

وما لم يعرف المسلم هذا يبقى فى غفلة، فلا يبعد أن يسوقه الكافرون لما يريدون وهو لا يشعر، بل يكون متحمساً لما يريده الكافرون بطيب قلب . وقد أشار القرآن إلى نوع من المؤمنين يسمعون للمنافقين فقال : ﴿ **وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾ [التوبة : ٤٧].

وما لم يعرف المسلم هذا تبقى أمامه ألغاز لا حل لها، كيف يجتمع الشرق والغرب على تأييد بعض الأنظمة ولماذا ؟ كيف يتفق الشرق والغرب على بعض الأفكار ولماذا ؟

إنَّ الكافرين قد تلتقى مخططاتهم، وقد تتعارض، وقد تسير أحياناً جنباً إلى جنب، فالدعوة القومية مثلاً تتبناها الدوائر الاستعمارية كما رأينا فى مقدمة هذا الكتاب، وتتبناها الشيوعية كما يذكر لينين، كمقدمة للشيوعية ومرحلة لها، وتتبناها الصليبية كبديل عن الإسلام، ومرحلة لهدف عندها، وتتبناها اليهودية لتضرب الخلافة ثم لتحطم قوة المسلمين فيسهل عليها التمكن فى فلسطين .

OBEIKAN.COM

والمسلم عليه أن يدرك هذا كله .

إنَّ معرفة الأعداء وإحصاءهم ومراقبتهم وإنهاءهم بالتالى عملية لا بد منها :

١- الماسون - الروتارى - الليونز .

٢- دوائر المخابرات - جواسيس أمريكا وبريطانيا وفرنسا . . .

٣- الأحزاب القائمة باتجاهاتها المتعددة : الرأسمالية، أو الديمقراطية، أو الشيوعية، أو الاشتراكية، أو القومية .

٤- المدارس التابعة لمؤسسات أجنبية سواء أكانت تبشيرية أو علمانية .

٥- دور النشر التابعة لأمثال هذه المؤسسات، وكذلك الصحف والمجلات التى تدعو إلى شىء مما يريده هؤلاء .

٦- دعاة الإباحية والفوضوية من كُتَّاب وقصَّاصين وأفلام سينما وتليفزيون .

٧- الدعاة إلى الآراء الكافرة، سواء أكانت تابعة لمدارس أجنبية، أو كانت وليدة مدرسة محلية متأثرة بالكفر والكافرين .

وينبغى أن نلاحظ ملاحظة مهمة هى : أنَّ الكافرين بأنواعهم يعتمدون دائماً فى ابتداء مخططاتهم على الأقليات الكافرة فى الأقطار الإسلامية، لذلك ترى دعاة القومية والشيوعية والماسونية وأكثرية الجواسيس أول ما يكونون من هؤلاء .

وخذ هذين المثالين :

(أ) ميشيل عفلق - جورج حبش - أنطون سعادة - العازورى . . هؤلاء زعماء الدعوات القومية فى منطقتنا وكلهم نصارى .

(ب) بقى اليهود فى العراق ومصر سنوات طويلة هم الذين بيدهم كل أجهزة الحزب الشيوعى، وكان مؤسس الحزب الشيوعى السورى أرمنياً .

فمراقبة هذه الأقليات وعدم الاطمئنان لها مما ينبغى أن يبقى حياً فى ذهن المسلم، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٩].

ومع أنَّ هناك تآمراً ومتآمرين، وحرباً مستمرة مستعرة، فهناك الأخطر من هذا : التحدى الحضارى الذى تواجهه أمتنا، والمتمثل فى الحضارة الغربية بشقيها الرأسمالى والشيوعى، وسبب الخطر أنَّ هؤلاء الآن متفوقون عسكرياً ومادياً، ونحن ضعفاء عسكريا وماديا، ومن عادة الأمم أن الأمة الضعيفة تشعر بعقدة النقص، وتحب أن تقلد الأمة القوية، والأمة القوية تحاول أن تذيب شخصيات الأمم الضعيفة فيها، كما تحاول الأمم القوية أن تنسب سبب قوتها إلى عقيدتها، وثقافتها، وسلوكها فى الحياة، وفى غالب الأحيان تصدق الأمم الضعيفة ذلك، فتحاول أن تعتقد عقائد الآخرين، وأمتنا الآن تعانى من هذه الأزمة، ولذلك فلا بد من عملية توعية تعيد الأمور إلى نصابها، وتبيِّن ما ينبغى أن تفعله أمتنا، وكيف تستطيع أن تتجاوز عملية التحدى الحضارى القائم، ولعل الكتب التالية تحل مشكلة المسلم المعاصر فى مواجهة هذا التحدى :

١- « نحو مجتمع إسلامى » للشهيد سيد قطب .

٢- « الإسلام ومشكلات الحضارة » للشهيد سيد قطب .

٣- « نحن والحضارة الغربية » لأبى الأعلى المودودى .

٤- « حركات ومذاهب » لفتحى يكن .

٥- « الثقافة الإسلامية » للدكتور عبد الكريم عثمان .

* * *

OBEIKAN.COM

١١- الدراسات الإسلامية المعاصرة

إنَّ ميزة الدراسات الحديثة كونها وليدة البيئة، ووليدة الكفاح الفكرى المعاصر الذى جابه به المسلمون الفكر الكافر والفاسق، فهو زاد المسلم المعاصر فى حربه الفكرية المعاصرة، والمكتبة الإسلامية أصبحت مليئة بالكتب التى هى من هذا القبيل، ونحن نحتاج إلى مزيد .

غير أنَّ كتباً تبقى أساسية، وكتباً يكمل بعضها بعضاً، أمثال هذه فقط سنشير إليها .

إنَّ هناك كتباً ألِّفت فى شرح الإسلام ككل، وفى شرح خصائصه . وهناك كتب ألِّفت فى عقائد الإسلام وفى أركانه، وهناك كتب ألِّفت فى شرح أنظمة الإسلام، وهناك كتب ألِّفت فى دفع الشُبهات عن الإسلام، وهناك كتب ألِّفت فى الجاهلية المقابلة للإسلام، وهناك كتب ألِّفت فى أمهات المسائل المعاصرة .

وحتى تكتمل ثقافة المسلم المعاصر لا بد له من استكمال هذه الدراسات كلها، وهذه صورة عن بعض هذه الكتب، وعلى المسلم أن يتتبع :

١- « مبادىء الإسلام » لأبى الأعلى المودودى .

٢- « خصائص التصور الإسلامى » لسيد قطب .

٣- « هذا الدين » لسيد قطب .

٤- « المستقبل لهذا الدين » لسيد قطب .

هذه الكتب تعطينا صورة عن الإسلام بشكل عام، وعن ميزاته وخصائصه، وحاجة الإنسانية إليه .

* * *

١– « الرسالة المحمدية » لسليمان الندوى .

٢– « الحضارة الإسلامية . . أسسها ومبادئها » لأبى الأعلى المودودى .

٣– « الأركان الأربعة » لأبى الحسن الندوى .

هذه الكتب تعطينا صورة عن أركان الإسلام .

* * *

١– « اشتراكية الإسلام ونظرات فى اشتراكية الإسلام » للسباعى والحامد .

٢– « ملكية الأرض فى الإسلام » لأبى الأعلى المودودى .

٣– « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » لسيد قطب .

٤– « أسس الاقتصاد الإسلامى » لأبى الأعلى المودودى .

٥– « الربا » لأبى الأعلى المودودى .

٦– « التكافل الاجتماعى فى الإسلام » لعبد الله علوان .

هذه الكتب تعطينا صورة عن النظام الاقتصادى الإسلامى .

* * *

١– « المرأة بين الفقه والقانون » للدكتور مصطفى السباعى .

٢– « الحجاب » لأبى الأعلى المودودى .

٣– « تفسير سورة النور » لأبى الأعلى المودودى .

هذه الكتب تعطينا صورة عن النظام الاجتماعى فى الإسلام .

* * *

١– « السلم والحرب » للدكتور مصطفى السباعى .

٢– « الجهاد » لأبى الأعلى المودودى .

٣– « نظرية الإسلام وهديه فى الدستور والقانون » ، و « نحو دستور إسلامى » للمودودى .

OBEIKAN.COM

٤- « رسالة الجهاد » للشهيد حسن البنا .

لأخذ صورة عن النظام العسكرى والسياسى .

* * *

١- « منهج التربية الإسلامية » لمحمد قطب .

لأخذ صورة عن طريق التربية الإسلامية .

* * *

١- « شُبهات حول الإسلام » لمحمد قطب .

٢- « جاهلية القرن العشرين » لمحمد قطب .

٣- « الثقافة الإسلامية » للدكتور عبد الكريم عثمان .

لمعرفة الفكر المقابل للإسلام وتحطيمه وتبيان تفاهته .

* * *

بهذه الكتب وأمثالها يُحصِّل المسلم الفكر الإسلامى المعاصر ليستطيع الثبات أمام المجتمع المتخلف العاهر الفوضوى الذى يجابه الأمة الإسلامية الآن .

ويُخرج الكُتَّاب الإسلاميون عادة كتباً، بعض هذه الكتب تعالج مشكلة قائمة وتعطى الرأى فيها ككتاب « حركة تحديد النسل » للمودودى، أو تعالج مرحلة ما ككتاب « ما بعد النكبتين »، أو تعالج جزءاً من الإسلام ككتاب « الشورى » للدكتور محمود بابلى .

والمسلم المعاصر عليه أن يبقى دائماً على صلة بالفكر الإسلامى فى كتبه، أو صحفه، أو مجلاته، على أن يبقى واعياً، وعلى ألا تشغله قضية على حساب قضية أخرى، ونحب أن نؤكد على ناحية هى : أنَّ احتمال الخطأ قائم فى كل ما نقرأ إلا ما كان آية من كتاب أو نصاً نطق به رسول الله ﷺ .

كما يبقى دائماً احتمال خطأ الفهم عن الله ورسوله قائماً، لذلك فعلى المسلم دائماً أن يبقى محققاً .

OBEIKAN.COM

١٢- فقه الدعوة والعمل

المسلم داعية إلى ما عنده بالفطرة، والله عَزَّ وجَلَّ عندما خاطب المؤمنين بقوله : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب: ٢١] كأنه حمَّل كل مسلم أمانة البلاغ، لأنَّ الرسول ﷺ من مهماته الأساسية البلاغ، وعندما قال الرسول ﷺ : « بلِّغوا عنى ولو آية » [١] كأنه يطلب من الذى يعرف آية أن يُبلِّغها، ومَن لا يعرف آية من كتاب الله ؟ وقد قال الفقهاء : « إنَّ مَن تعلم مسألة عليه تبليغها لأنه صارة فقيهاً فيها » .

وعملية الدعوة والتبليغ عملية كبيرة واسعة فى عصرنا وهى شاقة بنفس الوقت، لأنه لا يوجد المكان الذى يستطيع فيه المسلم أن يدعو إلى الإسلام كله بصراحة، ومن ثَمَّ أخذت الدعوة طابع الجزئية، فقام يدعو إلى جزء من الإسلام مجموعة، وتخصص فى جزء آخر جماعة، وتفرغ آخرون لمعان أخرى وكبرى . . . وهكذا، وكل مجموعة من هؤلاء صار عندهم تجربة وفقه، ولا شك أنَّ كل مجموعة تؤدى خدمة لله ودينه على طريقتها الخاصة، وبهذا لا يبقى جزء من الإسلام إلا ويوجد مَن يقيم على الناس الحُجَّة به، ولعل هذا معنى قولة علىّ رضى الله عنه : « ولا تخلو الأرض من ولى قائم لله بحُجَّة » .

ولا شك أنَّ المسلمين لا يتكامل أمرهم إلا إذا عرف كل واحد منهم أنه جزء من كل، وأنه يقوم بما يقوم به مكملاً عمل الآخر .

كما لا يتكامل أمرهم إلا إذا وُجِدَ تنسيق تام بين هؤلاء جميعاً، بحيث يصبح الجميع أجهزة فى جسم واحد، كل يؤدى دوره ضمن جسد، وهذا

---

(١) رواه أحمد والبخارى عن عبد الله بن عمرو، ورواه الترمذى أيضًا فى كتاب « العلم » عن عبد الله بن عمر، وللحديث تتمة.

مقتضى تشبيه الرسول ﷺ المؤمنين بالجسد الواحد، ولكن هذا لن يتم إلا إذا استطاع قسم من المسلمين أن يستوعبوا استيعاباً تاماً فقه الدعوة عند كل المسلمين، وكانوا فى نفس الوقت قادرين على تأليف القلوب على الخير، واستطاعوا أن يزيلوا ما بين المسلمين من حُجُب، واستطاعوا أخيراً أن يوحِّدوا طرق التربية بعد توحيد المفاهيم .

عندئذ يستطيعون أن يوجدوا نوعاً من التنسيق بين المسلمين فى القُطر الواحد، والمسلمين فى العالَم كله .

وأخشى ما يُخشى أن يترك المسلمون بعض الخير نفاسة لآخرين موجود عندهم هذا الخير، وأن ينسى الذين يفكرون تفكيراً واسعاً ما عند الحركات الصغيرة من جوانب طيبة، وأن يستغنى أفراد الجماعات القليلة كتلاميذ العلماء بما حصَّلوه من فوائد مما ينبغى أن يشاركوا فيه المسلمين كلهم من عمل، لذلك كله كان على المسلم أن يدرس كل ما أمامه من عمل فى الدعوة إلى الله، وأن يدرس كل اقتراح .

من طريقة العلماء إلى طريقة مشايخ الصوفية، إلى طريقة الجمعيات الخيرية، إلى طريقة الأحزاب الإسلامية، إلى طريقة الجماعات القائمة، إلى الاقتراحات المطروحة على بساط البحث فى قضية الدعوة . . . وهكذا .

على ألا يشغلنا هذا عن الدعوة . . . .

وعلى أن نحاول دائماً الاستفادة من كل تجربة ملاحظين دائماً عملية الاتفاق بين الدعاة جميعاً، فمن وصايا رسول الله ﷺ لداعيتين من أصحابه أرسلهما إلى اليمن : « تطاوعا ولا تختلفا » (١) .

وحبَّذا لو حلَّ الدعاة مشاكلهم بصراحة، وطرح كلٌّ مأخذه على الآخر

---

(١) قطعة من حديث رواه البخارى ومسلم فى كتاب « الجهاد » باب « تأمير الأمراء على البعوث »، ولفظ الحديث : « يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا، ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا » .

بصراحة، وحكَّموا إذا لم يتفقوا، وتنازلوا لبعضهم فى الله، تحقيقاً لمعنى الذلة على المؤمنين، إلا إذا كان التنازل على حساب سلامة السير، وليس كلامنا إلا عن الدعاة إلى الله، أما طلاَّب الدنيا والخائنون لله ورسوله ﷺ والمؤمنين فهؤلاء ينصحون فقط .

وأخيراً . . من أجل ما مَرَّ آنفاً نقول مؤكدين :

فى فقه الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامى فى هذا العصر، لا بد من دراسة لفكر الحركات الإسلامية الأصيلة، وطرق عملها وتكوينها وخططها، لمجابهة الردَّة والكفر على كل المستويات، ولتأمين هذه النواحى نقترح دراسة ما يلى :

١- « منهاج الانقلاب الإسلامى » للمودودى .

٢- « معالِم فى الطريق » لسيد قطب .

٣- « واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم » للمودودى .

٤- رسائل الأستاذ الشهيد البنا التالية « المؤتمر الخامس »، « رسالة التعاليم »، « بين أمس واليوم » ، « الرسائل الثلاث »، « دعوتنا فى طور جديد » . . وكل رسائل الأستاذ البنا ومذكراته وخاصة القسم الأخير منها .

٥- سلسلة رسائل قسم الأُسر « آداب الأسرة والكتيبة » ، « نظام الأسر . نشأته وأهدافه » ، « نحو جيل مسلم » .

٦- « مشكلات الدعوة والداعية » لفتحى يكن . . . (وعامة ما يكتب الأستاذ فتحى يدور حول فقه الدعوة) .

٧- « تذكرة الدعاة » للبهى الخولى .

٨- « نحو حكم إسلامى » لمحمد الضناوى .

٩- « الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين » .

١٠- « المقاومة السرية فى قناة السويس » .

كما نقترح أن يلامس الإنسان عن قُرب جماعة الدعوة والتبليغ، ويدرس طُرقهم وأساليبهم، كما نقترح أن يدرس المسلم عن قُرب طريقة عمل العلماء فى العمل الإسلامى، ففى كل عمل إسلامى جوانب إيجابية لو أخذت مكانها، وتخلت عن جوانب سلبية فيها، والحكمة ضالة المؤمن .

ويبدو لى أنه فى اللحظة التى تحاول فيه كل مجموعة مخلصة من المسلمين أن تسير فى طريق تكميل ذاتها من الناحية الأخلاقية والثقافية، فتسير فى طريق الكمال والتكامل، تكون كل مجموعة خطت فى طريق توحيد المسلمين خطوتها الأولى .

ودون أن يخطو المسلمون هذه الخطوة – خطوة توحيد الثقافة والتربية – فإنَّ كل مجموعة منهم تبقى فى عُزلة عن الأخرى، ولعلها مع هذا لا تحس بالإثم لاقتناعها بصحة ما عندهم .

وإننا لنرجو أن يكون هذا الكتاب أداة لفت نظر إلى جزء من هذا الموضوع، فلعل الله عَزَّ وجَلَّ يمن على الأمة الاسامية بخلاص، ووضوح طريق، وسير سليم .

فالخطوة الأولى إذن فى طريق جمع الشمل وتأليف القلب، أن يُتَفق على خطوط عريضة لا بد منها فى عملية التثقيف والتربية، بحيث لا يبقى جزء إلا وقد أخذ المسلم فى أى حلقة حظه منه، ثم يبقى لكل مجموعة ما تحرص عليه من أمرها خاصة .

فإذا ما تم هذا، تمت الخطوات التالية بشكل عادى وعفوى .

ونسأل الله أن يتقبل . . .

* * *

ملاحظات واقتراحات

يقول عليه السلام : « الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، أو عالماً ومتعلماً »[١] .

وروى عنه عليه السلام : « إنَّ لهذا الدين إقبالاً وإدباراً، ومن إقباله أن تتفقه القبيلة بأسرها، ومن إدباره أن يتفقه الرجل والرجلان »[٢] .

وقال عليه السلام: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان »[٣].

إنَّ العودة إلى المسجد، وإحياءه بالعلم والذكر، وربط المسلمين بحلقات العلم فيه، هى بداية البدايات لإحياء الإسلام .

فمتى قامت فى المسجد حلقات العلم التى تستوعب كل جوانب الثقافة الإسلامية، وصار المسلم ينتقل من حلقة إلى حلقة ليكمل ثقافته الإسلامية، وقام هو بدوره فى تعليم ما تعلم . عندئذ نكون قد بدأنا البداءة الصحيحة .

إنَّ مسجداً واحداً فى البلد الواحد من هذا النوع، إذا قامت به مثل هذه الحلقات، ونظم أهله رحلات العلم، والدعوة إلى العلم داخل الحلقات، يمكن أن تحيا به هذه البلد .

إنَّ مسجداً يقوم على أمره عالم صالح من علماء المسلمين، هذا العالِم

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة، ورواه الطبرانى فى « الأوسط » عن عبد الله بن مسعود، ورمز السيوطى لحسنه، ورواه الترمذى وحسّنه.

(٢) رواه الطبرانى عن أبى أمامة، وفيه يزيد بن على: متروك.

(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والدارمى وابن منيع وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً، وقال الترمذى: حسن غريب، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم.

OBEIKAN.COM

يجهد من أجل إيجاد مجموعة يختص كل فرد من أفراها بجانب من جوانب الثقافة الإسلامية، ثم يبدأ بالدعوة إلى العلم والتعلم، ويجلس من استجاب له إلى حلقة تنسجم مع حاله : حلقة القرآن، أو السُنَّة، أو تاريخ، أو أصول ثلاثة، أو أصول فقه، أو عربية، أو حلقة درس التآمر على الإسلام، أو حلقة الدراسات الإسلامية الحديثة، أو حلقة فقه الدعوة، أو حلقة الأخلاق الأساسية .

ثم إذا أتقن المستجيب جانباً نقله إلى حلقة أخرى، وهكذا يتقلب المسلم من حلقة إلى حلقة، حتى يستكمل ثقافته الإسلامية، ثم من تعلم شيئاً كلَّفه أن يُعلِّمه فى نفس المسجد أو فى مكان آخر .

إنَّ شيئاً مثل هذا لو حدث فى مسجد فى البلد الواحد دليل على سير صحيح فى طريقهم التغيير نحو الأحسن : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] . . وهذا طريق التغيير .

إنَّ هناك عوازل بين الدعاة إلى الإسلام وبين الناس، لا يحله إلا عودة إلى المسجد، وهناك ضلال كثير وجهل كثير، وانحراف خطير، وأجهزة تعمل ليل نهار من أجل التضليل، لا يقف أمام هذا إلا علم يُنشىء وعياً واستقامة، وهذا لا يتيسر إلا بالنزول إلى المسجد وإحيائه .

(١)

إنَّ هناك ناساً لا يوصل إليهم إلا بالحلقات الخاصة، وهناك ناس لا يوصل إليهم إلا بالحلقات العامة، هؤلاء طريق إيصال الإسلام إليهم هو المسجد، هذا عدا عن كون تربية المسجد أقوم وأعدل، وأكثر استقامة .

هذا عدا كون حلقات المسجد وحدها هى التى يمكن أن تأخذ فيها العلم اليومى الكثير .

لهذا كله فإنَّ واجب طُلاَّب العلم الذين أخذوا حظهم من كل فروع الثقافة الإسلامية فى المعاهد والكليات والجامعات، أن ينقلوا ما أخذوه إلى المسجد

ليعطوه للعامة بشكل منظم، كما أخذوه بشكل منظم، ولكن مع التبسيط والتسهيل .

وإنَّ أحداً ما لا يستطيع أن يحول بيننا وبين العلم والتعليم، ولو أراد أن يحول فعلينا أن نصبر ونتحمل والله معنا والحُجَّة واضحة .

إننا نقترح أن تنشأ فى مسجد واحد، فى البلد الواحد – أو فى أكثر من مسجد – الحلقات التالية :

١– حلقة لتدريس الأصول الثلاثة .
٢– حلقة الكتاب .
٣– حلقة السُنَّة .
٤– حلقة أصول الفقه .
٥– حلقة العقائد .
٦– حلقة الفقه .
٧– حلقة الأخلاق الأساسية .
٨– حلقة العربية .
٩– حلقة معرفة التآمر على الإسلام .
١٠– حلقة التاريخ الإسلامى .
١١– حلقة حاضر العالَم الإسلامى .
١٢– حلقة الدراسات الإسلامية الحديثة .
١٣– حلقة فقه الدعوة .

وأن يكون لكل حلقة مسئول عنها ومختصون فيها .

وكل حلقة يتفرع عنها حلقات، هذه الحلقات مهمتها إيصال هذا الجانب من الثقافة الإسلامية إلى الناس كل بحسبه، وعلى قدر استيعابه وطاقته .

فإذا ما انتهى إنسان من حلقة انتقل إلى حلقة أخرى فأُعطى فيها ما يناسبه، حتى يتمم المرور على كل الحلقات، وبعد ذلك يمكن أن يدخل فى حلقات المختصين ليكون جزءاً من لجنة حلقة من حلقات الاختصاص . ويكون ذلك كله بإدارة شيخ المسجد .

ولا شك أنَّ عملية التأسيس عملية شاقة، لأن المستجيبين فى الابتداء قليلون، والثابتون منهم أقل، والأكفاء للمشاركة فى العمل أقل هذا الأقل .

OBEIKAN.COM

وما بين الابتداء وبين أن توجد لجان اختصاص فى المسجد لكل جانب من جوانب الثقافة الإسلامية أمد بعيد، ولا يصبر على ذلك إلا الصادقون المخلصون .

(٢)

كل جوانب الثقافة الإسلامية التى ذكرناها ضرورية للمسلم، وأى تفريط فى أى جانب إنما يكون على حساب العمل أو الوعى أو سلامة العقيدة، أو سلامة السير أو حسن الحركة .

ولكن الحظ الذى ينبغى أن يأخذه كل مسلم من هذه الجوانب يختلف باختلاف حال هذا المسلم من حيث الفراغ، والنشاط، والذكاء، وجودة الفهم، والإيمان، والقرب أو البعد من مراكز التلقى، والمربى حكيم يعطى كل إنسان ما يناسبه، ثم يدرجه باستمرار ولا يقطعه، ويعطى كل إنسان بحسبه، ويخاطب كل إنسان بقدر ما يسعه، فمنهم مَن يؤمر بقراءة كتب، ومنهم مَن يتدارس معه، ومنهم مَن تكفيه جلسة لكل جانب .

ومَن درس حال الصحابة مع رسول الله ﷺ عرف كيف تكون التربية ويكون التعليم، فمن الناس مَن تحمل عن رسول الله ﷺ حديثاً واحداً، ومنهم مَن تحمل عنه القرآن كله وحظاً كبيراً من السُنَّة .

فما لا يُدرك كله لا يُترك جله .

ولكن لا بد من السعى من أجل الكمال والتكميل، ولو لأعداد قليلة، مع ملاحظة الابتداء مع كل إنسان بالأهم فالمهم، فليس من المعقول أن تبدأ مع إنسان مبتدىء مدارسة كتاب طويل عن النظام الاقتصادى فى الإسلام وهو لا يعرف الصلاة وقراءة القرآن، وليس من المعقول أن تبدأ مع إنسان غير مؤمن بغير الدعوة إلى الإيمان وإزالة الشُبهات .

إنَّ حسن الابتداء مع كل إنسان بحسبه من الحكمة .

(٣)

إنَّ درساً فى الأسبوع أو جلسة علمية فى الأسبوع لا تكفى لأخذ ثقافة إسلامية مركَّزة، لذلك لا بد من المطالعة الشخصية لمن يستطيعها، ولا بد من المدارسة فى علوم معيَّنة لا تؤاخذ إلا بواسطة التلقى كالفقه والتجويد .

ونحن ندعو أن يُخصص وقت معين كل يوم للعلم، إما بعد الفجر، أو بين المغرب والعشاء، يذهب فيه المسلم إلى المسجد لتلقى علم من العلوم فى حلقة من الحلقات، إنَّ هذين الوقتين ينبغى أن يملآ بالعلم، كما ينبغى أن تمتلىء المساجد فيهما على الأخص بحلقات جوانب العلم فى الإسلام .

كما ندعو إلى اللجوء إلى طريقه الدورات العلمية اليومية القصيرة التى يأخذ المسلم فيها علماً من العلوم الإسلامية، أو مجموعة علوم بسرعة .

ماذا على المسلم لو خصص كل يوم ما بين العشائين للعلم والتعليم أو أى وقت آخر إن لم يتيسر ذلك، وإنَّ فى البكور لبركة : « بورك لأمتى فى بكورها »[١] .

(٤)

بعض الناس يفر من الحلقات والمدارسة لأنه يرى أنه يستطيع أن يحصِّل أكثر منفرداً، وبعض الناس يفر من كل ما هو عام إلى ما هو خاص . وبعض الناس لا يحب أن يربط نفسه بقيود أو مواعيد أو حدود .

والذى نقوله فى هذا : إنَّ ما يُحصِّله الإنسان فى الحلقات والمدارسة أكثر بركة وثباتاً مما يُحصِّله منفرداً، وللحلقات العامة بركتها، وإلزام الإنسان نفسه بالخير أجدى عليه دنيا وأخرى .

إنَّ المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة .

OBEIKAN.COM

والمؤمن يحرص على الاجتماع بإخوانه على الخير لأن لذلك آثاراً طيبة، العلم فى المسجد له نوره الخاص، وإنَّ مَن يتخرج من مدرسة المسجد، غير الذى يتخرج من مدرسة أخرى .

(٥)

إننا نوصى أى مسلم يبدأ السير فى طريق استكمال ثقافته الإسلامية، أن يخصص له ورداً من الذكر المأثور، كما نوصى أى مسلم له دور توجيهى أن يعلق من يوجههم بالذكر اليومى من استغفار، لصلاة على النبى ﷺ ، لتهليل، أو تسبيح، أو تحميد، لقراءة قرآن، فإنَّ ذلك لا بد منه لإحياء القلب، وتمتين الإيمان فيه . قال تعالى : ﴿ **أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] ، وقال عليه السلام فى الحديث الصحيح : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحى والميت » (١) .

إنَّ تعلق قلب الإنسان ولسانه بالذكر حتى يكون الشغل الشاغل له، مع العلم، هو الطريق إلى الكمال . . والله هو الهادى .

* * *

---

(١) رواه البخارى عن أبى موسى الأشعرى فى كتاب « الدعوات » . باب « فضل ذكر الله عَزَّ وجَلّ » . ورواه مسلم بمعناه .

OBEIKAN.COM